بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الحمد لله الذى منَّ على عباده بإرسال رسله.

وختمهم بسيدهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

فـــأرسله بالهـــدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

هذا كتاب «تثبيت دلائل نبوة نبينا محمد» رسول الله صلوات الله عليه وسلامه.

والأدلة على معجزاته وظهور آياته.

والرد على من أنكر ذلك.

باب

[القرآن ينبئ ببعثته صلى الله عليه وسلم]

فنبدأ من ذلك بما فى القرآن، وبما يجرى مجراه مما يعلمه من سمع أخباره، كالعلم بالقرآن، فقد علم كل من أخباره ﷺ أنه ظهر بمكة، فأكفر اليهود وبرئ منهم، والنصارى والروم وبرئ منهم، والفرس والمجوس وبرئ منهم، والهند وبرئ منهم، وقومه من قريش والعرب وبرئ منهم، وعاب آلهتم، وأكفر أسلافهم، وضلل أديانهم، وفرق آلافهم.

وقال لهم: الله أرسلنى واصطفانى منْ العالمين، وجعلنى حجة على كل من بلغته دعوتى من الأولين والآخرين، وجعلنى خاتم النبيين وآخر المرسلين، وإن دينى يظهر على الأيان كلها، وأن كلمتى وكلمة أتباعى تعلو، وإنهم هم الغالبون القاهرون المالكون.

---

(١) سورة التوبة آية ٣٣ .

وهو إذ ذاك فقير وحيد، أجير معيل، قد أغضبهم وغاظهم بهذه الدعوة، وألبسهم الذل مع وحدته، وبالغ فى إسخاطهم، فنهوه وزجروه، بعد أن عابوه وعذلوه؛ ثم توعدوه بالاستئصال والبوار، بعد أن رغبوه. فغلبهم على أمره، وقال: إنى قد قلت لربى حين أرسلنى: إنى إن قلت هذا لقريش رضخوا رأسى، فقال لى: قل، وبلغهم، فسيغضبهم ذلك، وسيبعثون مكروههم عليك، وسيتحزبون ويجلبون فى عداوتك، ويجمعون العساكر لحربك فأعصمك منهم، وأبعث جنوداً لك منهم ومن غيرهم، فتكون العقبى لك، فقال هذا وما هو أشد منه.

يعلم ذلك كل من سمع أخباره ممن صدقه أو كذبه، وهو لا يعتصم بمخلوق، ولا يصوب ملكاً من ملوك عصره، ولا يلوذ بأحد من البشر. بل قد رماهم كلهم عن قوس واحدة بالعداوة، وأسخطهم أجمعين، وبعثهم بهذا الصنيع على عداوته. ثم ما رضى أن يجعل ذلك قولاً ثم صفحاً، بل خلده ودونه، وجعله كتاباً يقرأ، وقرآناً يتلى، يسمعه عدوه وقال: ربى قال لى، وربى وربكم أوحى به إلى، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾(١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(٢).

فإنهم زادوا غيظاً عليه، وصاروا هم واليهود والنصارى والفرس والمجوس يدا واحدة فى عداوته، وطلب نفسه، والحرص على قتله، وهم أشد الناس حقداً وأنفة وجبرية، وطلباً بطائلة، لا يقارُون من عاب خيولهم وجمالهم فكيف بمن عاب آلهتهم وآباءهم وعقولهم وضلل أديانهم، فعصمه الله منهم وهو رجل فريد بينهم، وهو فى مثوبة الموت، وخندق الخوف، وذل اليتم، ووحشة الوحدة، لا يعتصم منهم بمخلوق، فصرفهم الله عنه وهذه حاله.

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٠ .

(٢) سورة المائدة آية ٦٧ .

فلو لم يكن من آياته ودلائل نبـــوته إلا هذا لكفى وأغنى وزاد على الكفاية، لأنه إخبار بغيوب كثيرة، لأنه قال لجميع قريش ولجميع العرب ولجميع اليهود ولجميع النصارى ولكل واحد منهم: لا تقتلوننى، مع ما قد جاءهم به مما قد غاظهم وأغضبهم، وهو فى هذا القول كالباعث لهم على نفسه، وكالحامل لهم على مكروهه وهو يذكرهم بذلك، فسلم منهم مع هذه الأحوال فهذا باب كافٍ شافٍ.

باب آخر

[ثقته صلى الله عليه وسلم بالله]

وهذا مقام لا يقومه عاقل إلا أن يكون على غاية الثقة بالله عز وجل والسكون إلى وعد الله لأنه لو لم يكن كذلك لم تلبث أن تغضب أمم العرب والعجم لأديانهم، ويأنفوا لأنفسهم وآلهتهم، فيستأصلونه ويصطلمونه ويقتلونه ويمحون أثره. فلما سلم مع الحرص على قتله، وآلت الأمور إلى ما قال، علمت وتيقنت أنه من قبل الله، لأن مثله فى هذا مثل من قال إنى أخوض هذه النار المضرمة فلا تحرقنى، أو كمن قال: أتردى من شاهق على الأسنة وأنا عريان فلا تنفذ فى، أو كمن قال أدخل من هذه السباع الضارية الجائعة التى قد أغضبتها وقتلت أولادها وهى حريصة على افتراسى ومحتاجة إلى قتلى والراحة منى فأسلم منها ولا تقتلنى، فهذا باب شاف.

وباب آخر

وهو ما كان وعد وقال وهو فى وحدته، إنى سأصير فى جماعات وعساكر فكان كما قال وأخبر، لأنه حين دعاهم أنكروا قوله وأكفروه وتلقوه بالرد والتكذيب، ثم ما زال والنفر بعد النفر يجيبونه، حتى صار فى عساكر، فاعتقدوا بصدقه ونبوته، وصاروا له جنداً مطيعين، وحزباً متفقين، ينفقون أموالهم ويسفكون دماءهم فى طاعته، ويفرون من آبائهم ويقتلون أبناءهم ويفارقون أوطانهم لأجله وامتثالاً لأوامره، وأزكى الأعمال عندهم ما أرضاه بلا دنيا بسطها فيهم، ولا أموال دفعها إليهم، ولا لرئاسة كانت له عليهم، بل كان يتسيماً فقيراً وحيداً معيلاً محتاجاً.

ثم جاءهم مجيئاً ما جاء نبى قبله فى مثل حاله، فإن موسى ﷺ أتى قومه من بنى إسرائيل، وهم أولاد الأنبياء، قد اعتقدوا الربوبية وعرفوا الطريق إليها واعتقدوا النبوة وعرفوا الأنبياء قبل موسى، كآدم ونوح ثم إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط، وألفوا عبادة الله، واعتقدوا المعاد وعرفوه.

ثم جاءهم فى ذلٍ وأسرٍ وقهر فى أيدى الجبابرة من القبط والفراعنة، يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويمنعونهم الصنائع الشريفة والاحتراف، ويقصرونهم على ضرب اللبن وقطع الأحطاب والأعمال الشاقة المؤلمة، فجاءهم موسى بما يعتقدون من الربوبية والنبوة، ثم أخرجهم من الذل إلى العز، ومن الشقاء إلى الرفاهية والدعة، ومن الفقر إلى الغنى.

ثم جاءهم من بعد موسى من الأنبياء بما جاءهم موسى إلى أن انتهت النبوة إلى المسيح ابن مريم ﷺ، فأتى بنى إسرائيل بسنن موسى، وشرائع التوراة.

فقدم هو والأنبياء قبله على أمر مألوف معروف، وعلى قوم قد ألفوا وعرفوا، وجاء محمد ﷺ قوماً لا يعرفون الربوبية، ويعبدون الأصنام، وينكرون البعث والمعاد أشد الإنكار، لا يعرفون نبوة ولا طهارة ولا صلاة ولا صياماً ولا زكاة، أشد الناس نخوة وجبرية وأنفة، قساه جفاة، معاشهم من شن الغارات، يسفكون دماءهم ويئدون ذريتهم فراراً من العار.

ودعاهم ﷺ إلى الربوبية وإلى الإقرار بالنبوة والبعث والقيامة، وأخذهم بالصدق والوفاء وأداء الأمانة والخضوع للحق، وبالطهارة والصلاة والصيام والاعتكاف والزكاة، وصلات الأرحام، وقطع السارق، وجلد القاذف والزانى وشارب الخمر ومساواة الموالى والفقراء والأعاجم والضعفاء فى الدماء وأخذهم بالبراءة من آلهتهم التى يعبدونها من دون الله، ومن آبائهم ومن أديانهم، وبالإقرار بضلالهم والتدين بالبراءة منهم، وببذل دمائهم وأموالهم فى طاعته، وبمجاهدة الأمم ومعاداة الجبابرة والملوك فى طاعته.

فأخذهم بكل شدة، وأخرجهم من الراحة إلى الكد ومن المسالمة إلى العداوة، وألزمهم ما لم يكونوا ألفوا ولا عهدوا، وألزمهم الكلف والمؤن، فأجابوه بهذه الشرائط، فكان مجيئه على الوجوه التى قدمنا ذكرها من آياته ودلائل نبوته ﷺ، ولم نجعل طاعة أصحابه له وتصديق القوم ومصيره فى عساكر وجماعات من دلائل نبوته إلا لأنه أخبر قبل ذلك أن هذا سيكون فكان كما أخبر وكما قال على تلك الوجوه التى شرحناها وبيناها. لأنه دعاهم إلى أمور وشرائط ظاهر التدبير وموجب الرأى واقتضاء الحزم ألا يجيبوه ولا يتبعوه إلا أن يكون من قبل الله، وواثقاً بوعد الله، فإن سبيله فى ذلك سبيل من قال: هذه النملة الضعيفة تهزم هذه العساكر المعدة، أو هذه الزجاجة الرقيقة ترض هذه الجبال الصلبة الشديدة، لأنه قد كان فى الضعف والوحدة على ما قد علمه الناس، ثم دعاهم إلى ما يكرهون، وأخذهم بكل شدة، وفرض عليهم الأمور الغليظة الصعبة على ما تقدم من شرح ذلك، فعلمت وتيقنت أنه نور الله ومن قبل الله.

فإن قيل: أو ليس قد أباحهم الغنائم، فما تنكرون أن تكون إجابتهم له لهذه العلة.

قيل له: هذا لا يسأل عنه من يعقل ولا من يفكر لأن القوم قد اعتقدوا صدقه ونبوته فكانت إجابتهم له لهذا وعلى هذا القربى إلى الله عن رضى بذلك، فمن ادعى غير هذا فقد أنكر المعلوم، أو يكون لم يسمع الأخبار. فهم إنما أجابوه على أن ينفقوا أموالهم ويسفكوا دماءهم ويقتلوا آباءهم وأبناءهم فى طاعته ولأجله، فكيف يسوغ لعاقل فكر وتدبر أن يقول إنما أجابوه طلباً للدنيا ورغبة فى الراحة والدعة والأمر بالضد من ذلك.

وبعد فإن لم يكن تبعوه إلا للغارة وللغنائم لكانوا يقولون له: حاجتنا إليك فى الغارة والغنائم ونحن أعلم بها منك، وهى صناعتنا نحن وعادتنا، وما الذى يدعونا إلى اتباعك وما معك وما تبعك إلا أن تبعثنا على الغارة والغنائم؟ من أجل سعة أموالك وكثرة كنوزك ومروج خيولك واصطبلات دولك؟ أم

لخزائن سلاحك.ومن أخذنا بأن نكفر آباءنا ونشهد بضلالهم ونسخف أجلاءهم، ونسوء اختيارهم، ونعادى الأمم وجبابرة الملوك، ونسفك دماءنا فى طاعتك، ونقتل كل من عاداك وخالفك وإن كانوا آباءنا وأبناءنا أو إخواننا، ونفارق أوطاننا وأزواجنا، ونهجر اللذات من شرب الخمور ولبس الحرير وشفاء الغيظ بقتل من سبنا أو عاب آباءنا كعاداتنا فى ذلك، ثم لا نحصل إلا على شئ إذا غنمناه بقوتنا وغلبنا عليه بأسيافنا بعد المخاطرة بدمائنا أن نسلمه إليك فتعطينا بعضه.

هذا لا يختاره بله النساء فكيف بالمهاجرين والأنصار الذين أجابوه فصار بهم فى عز ومنعة، وصبروا على تلك الشرائط التى شرطها.

وبعد فإن لم يكن نبيا فهم لا يدرون هل يصل إلى غنيمة؟ ولعله لا يتم له شئ مما يعد، فما كانوا ليتبعوه لما يظنه الخصم، ولولا أن هذا قد كان فى أهل الذمة وطبقات الزنادقة، وتعدوا إلى قوم زعموا أنهم من المسلمين لما ذكرناه، ولكنه شئ يستزلون به المسلمين الذين لا ينظرون فيما هذا سبيله، ويغترون بالظاهر.

هؤلاء الذين ادعوا أنهم من المسلمين وأنهم من خاصة الخاصة، وممن قد عرف ما لا يعرفه غيره، وأن للأمور غوامض وبواطن قد عرفها، فيعتقد من يسمعه فى المهاجرين والأنصار الغفلة والبله وقله العقل، ومن تدبر، يعلم أنهم أوفر عالم الله عقولا، وأحسنهم تحصيلاً، وأسرعهم استدراكاً لخفيات الأمور وغوامضها، لا فرق بين من رمى المهاجرين والأنصار بذلك، وبين من رمى رسول الله ﷺ بذلك. فإن آثار عقول المهاجرين والأنصار معروفة فى أفعالهم، وتدبيرهم الدنيا، وسياسة أهلها، وترتيب خواصهم وعوامهم، وأخذها من أيدى دهاة الملوك وعقلاء الناس وتفصيل ذلك يطول.

فإن قيل: ومن سلم لكم عقل صاحبكم حتى تقولوا إن من دفعنا عن عقول المهاجرين والأنصار كمن دفعنا عن عقل رسول الله ﷺ ؟

قيل له: إن أعداءه لا يدفعونه عن ذلك، فإنهم قالوا: ما جمع المهاجرين والأنصار وهو فقير أجير معيل وقد دعاهم إلى ما قدمنا وعلى الشرائط التى ذكرنا إلا بعقل وافر، وحلم واسع، وبلطف فى التدبير وحسن تأت وعلم بالعواقب، وسعة فى الفطن، وهذا قول عدوه فيه. فأما وليه فيقول: هذا لا يبلغه عاقل بعقله، ولو كان أتم الناس عقلاً، وأوسعهم علماً وحلماً، وأكثرهم مالاً، ولا يكون هذا على تلك الشرائط إلا بتدبير الله عز وجل، الذى يملك العقول، ويقلب القلوب، ويوحى منه عز وجل.

فإن زعم الأعداء أن الذى تم له كان مع قلة العقل وبالعجز فيه والخبط فقد خرجوا من كل معقول، وتبرؤوا من كل تمييز ومحصول، وجعلوا أنفسهم ضحكة وأحلوا بها المكاره، وأعطوا خصمهم أكثر مما طلب، وشهدوا بأن الله قد نقض له العادات أكثر مما نقضها لأحد من الناس كلهم ممن ادعى النبوة والحكمة وغيرهم لأنهم زعموا أنه تم له ما تم بتلك الشرائط وعلى تلك بعقل ضعيف وخلق سخيف وبالذهاب عن الحزم والحلم ومع طول الغفلة، فإذا تبين عقله لمن تفكر من عدوه، علم أن عقول المهاجرين والأنصار مثل عقله أو قريب منه، وكذا عقول قريش ثم العرب.

فإن العقلاء والحكماء يقولون: الأمم العاقلة هم: العرب والفرس والهند والروم، ثم قالوا: أعقل الأربع العرب والفرس، ثم اختلفوا أيهما أعقل وأحكم وأفطن، الفرس أم العرب؟ وخاضوا فى ذلك، وذكروا ما لكل أمة من وصية وحكمة، وتدبير وسياسية،، وهذا ما لا يدفعه العاقل المتفكر المتدبر.

فإذا كان عقل رسول الله ﷺ قد عرفه عدوه ووليه، فمن هذا عقله لا يأتى تلك الأمم ويستقبلها بتلك المكاره التى فصلنا وحاله فى الوحدة ما ذكرنا ثم يقول: لا تقتلوننى مع حرصهم على قتله، ويقول: ستصيرون أنصارى مع شدة ما دعوتكم إليه وهو غير واثق بما قال، ولا ساكن إ لى ما أخبر، ثم لا يرضى أو يجعل ذلك كتاباً يقرأ، وقرآناً يتلى، ويجعله فى يد عدوه فيقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١).

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣ .

يريد بالآفاق: ظهور الإسلام عليها، وبلوغ دعوته إليها، لأنه قد كان وعد بذلك وهو بمكة وحين ادعى النبوة، فكانوا يقولون: أيطمع محمد أن يظهر على الآفاق؟ لا، ولا على مكة، ولا على دار من دور مكة؛ ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ يريد: فى إسلام من يسلم منهم بعد الردّ والتكذيب ومن يقيم على تكذيبه ويموت على شركه على ما لعله أن يرد تفصيله عليك.

وفى هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1] لأنه ﷺ كان إذا ذكر ظهور دينه، وغلبه أصحابه، وقتلهم لأعدائه، استبعدوا هذا بل أحالوه، وقطعوا الشهادة بأن هذا لا يكون أبداً، فيقول فى جواب ذلك: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

وفى هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[2] يعنى هؤلاء: مثل أبى جهل، وأبى لهب، وعقبة بن أبى معيط، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأشباههم وأمثالهم من أعداء رسول الله ﷺ. فعزى الله نبيه، وبشره بقوم يطيعونه ويتبعونه، فيسر له المهاجرين والأنصار كما وعده.

وقد أذكره بإنجاز هذا الوعد ووقوع الوفاء به، فقال عز وجل: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3] لأن اجتماع المهاجرين والأنصار له، واعتقادهم نبوته، وأخلاصهم فى طاعته على تلك الشرائط التى تقدم ذكرها، وعلى الوجوه التى قرر دعوته عليها لا يكون ولا يتم بإتفاق جميع ما فى الأرض، ولا يكون إلا بتدبير الله وصنعه، وهو من آياته التى نقض العادات بها.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٧ .

(٢) سورة الأنعام آية ٨٩ .

(٣) سورة الأنفال آية ٦٢ و ٦٣ .

ومـثله قـوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] وهم قد كانوا عقلاء قد عرفوا هذا، ولا يجوز فى العقل أن يقول رئيس قوم لأتباعه: قد كنتم أعداء يعادى بعضكم بعضاً ثم صرتم إخواناً يخلص بعضكم لبعض المودة وبى هداكم الله وجمعكم وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذبهم.

هذا فى رئيس لا يدعى النبوة فكيف بمن يدعى الصدق والنبوة؟ وهذا قول قد سمعه عدو النبى ﷺ من اليهود والنصارى وقريش والعرب، وأخرسهم صدقه، وبهر عقولهم تمامه والوفاء به، لأنهم اجتمعوا له بتلك الشرائط التى قد تقدمت، وهو بخلاف اجتماع الاتباع لخطّاب الملك وطلاب الدنيا.

فإن قيل: أفليس على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وابنه محمد وبنو محمد، كإبراهيم الإمام وإخوته، كأبى العباس، وأبى جعفر، وغيرهما، قد كانوا مقهورين ومغلوبين ببنى أمية، فدعوا إلى أنفسهم بخراسان فأجيبوا، وصاروا فى عساكر وجماعات، فغلبوا بنى أمية على الملك، وقتلوهم وأخذوا كل ما فى أيديهم إلا بلاد الأندلس من أرض المغرب، فلم لا يكون سبيل نبيكم وغلبته هذه السبيل؟ وإلا فقد لزمكم أن تقولوا بنبوة بنى العباس كما قلتم بنبوة صاحبكم.

قيل له: قد فرغنا من هذا مرة وتبيّنا الجواب فيه، وهو أنا لم نقل بنبوة محمد ﷺ لأنه صارت له رئاسة وصار متبوعاً وصارت له عساكر، ولكن لأنه أخبر بالأمور قبل كونها على غير مجرى العادة، بل على ما هو نقض للعادات، لأنه أتى الناس وهو وحيد فقير أجير، فأغضبهم وغاظهم وجادلهم وعادوه، وأخبر أنهم سيُغلبون، وأنه يغبهم ويقهرهم، وقالوا: بل نحن نغلبك وندبرك، وكان موجب التدبير ومقتضى الحزم أن تكون الغلبة لهم لا له، إلا أن يكون من

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

قبل الله ورسولاً لله، لأنهم واليهود والنصارى والفرس والمجوس يد واحدة فى عداوته والقصد لقتله وإطفاء نوره ولمنع اتباعه، والرجال والكراع والسلاح مع عدوه لا معه، فآلت الأمور إلى ما قاله، وكما أخبر، وعلى مافسر.

ولم تكن هذه سبيل بنى العباس؛ فإنهم ما ادعوا نبوة ولا رسالة، ولا أتوا مثل ما أتى من الإخبار بالغيوب.

وأخرى أن بنى العباس قصدوا، المسلمين من أهل خراسان، الذين قد اعتقدوا نبوة محمد ﷺ، فتدينوا بإقامة شريعته وحد حدوده، بإنكار ما أنكره وبإكرام من أكرمه، وإجلال من أجله، وبإهانة من ارتكب الكبائر فشكوا إليهم ما نزل ببنى هاشم خاصة ثم بالمسلمين عامة من بنى أمية. وبنو هاشم إذ ذاك كلمة واحدة، ما اختلفوا ولا تباينوا. فكان ولد العباس وولد على وولد جعفر وولد عقيل وسائر بنى هاشم متفقين، وإنما اختلفوا بعد مصير الدولة والملك إلى بنى العباس أيام أبى جعفر المنصور، فجرى بينه وبين بنى عمه من ولد الحسن ما هو معروف، فحينئذ اختلفوا فذكر بنو هاشم لأهل خراسان ما صنعه بسر بن أرطاة بعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأنه قصده وهو عامل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فهرب من يده ووجد له إبنين طفلين فقتلهما وقتل جماعة من أصحابه. وأذكروهم بقتل حجر بن عدى وأصحابه وبكربلاء ومن قتل من بنى هشم بها، وبقتل مسلم بن عقيل وبالحرة وبعسكر التوابين من أهل عين الوردة، وبما أنزلوه بالكعبة فى قتال آل الزبير ثم بمن قتلوه من القراء أو الفقهاء الذين ثاروا مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فى الإنكار على الحجاج وعبد الملمك بن مروان، وبقتل زيد بن على ويحيى بن زيد، وبصنيع الوليد بن يزيد بن عبد الملك وما أتى من شرب الخمور والمجاهرة بذلك.

فأثار بنو العباس ودعاتهم أهل خراسان بذلك، فقدم بنو العباس على أمر ممهد وجند مجند، وعلى قوم مسلمين قد صدقوا رسول الله ﷺ، ورضوا بما رضى رسول الله، وغضبوا مما يغضب منه رسول الله ﷺ. فبنوا العباس

إلى رسول الله نحوا، وبأمته والمصدقين به استجاروا، فالذى تم لهم فبرسول الله ﷺ تم، وبظله تفيئوا، وبه تستروا، وهذه سبيل كل من ادعى بعده ﷺالإمامة من بنى هاشم ومن جميع قريش أو ادعى أنه من قريش. وكلهم برسول اللهم ﷺ تشبثوا، وبه تستروا واستعاذوا ولاذوا، ولأجله تم لهم ما تم، وأنت تجد ذلك فى واحد واحد منهم فى مشارق الأرض ومغاربها، وتعرف المحق منهم من المبطل، والدّعى من الصريح، فأين هذا من دعوة رسول الله ﷺ وسبيلها ما قدمنا وشرحنا.

فإن قيل: أو ليس مع أدعائه النبوة قد حمل السيف على من خالفه، وحارب بمن أطاعه من عصاه، فما تنكرون أن يكون الذى تم له من أوله إلى آخره إنما تم بالسيف وبالمكابرة، لا بالآيات والمعجزات؟

قيل له: ما أنكرنا أنه حمل السيف، وإنما كلامنا فى الذين صاروا سيوفاً له وعساكر وبهم استطال على عدوه، فإن هؤلاء قد أجابوه بلا دنيا ولا سيف كما قد فقدمنا وبينا، وبمصيرهم إلى طاعته صحت نبوته فظهرت دلائل رسالته، لأنه ما خلق قوماً حملوا السلاح معه، وإنما أجابه المهاجرون والأنصار الذين هم من قريش وغيرهم من العرب وقد أتاهم بإكفارهم وإكفار آبائهم على ما شرحنا وبينا، وهو من الوحدة والفقر على ما ذكرنا، فمكث بمكة بعد ادعائه النبوة خمسة عشر سنة يدعو إلى دينه، فيجيبه النفر بعد النفر على خوف شديد، وقد تجردت قريش وغيرهم من أعدائه له ﷺ ولمن اتبعه وأطاعه، فيقصدونهم بالضرب والتعذيب الشديد، ويمنعونهم الأقوات، ويتعاهدون على أن لا يبايعوهم ولا يشاروهم ولا يناكحوهم.

وقد كتبوا فى ذلك الصحف، وقد قتلوا منهم قبل الهجرة رجالاً ونساء وكانوا يدصدون لرسول الله ﷺ ولدعاته إذا خرج إلى الموسم لدعاء الناس وإظهار ما معه وتلاوة القرآن، فيقولون للعرب: هذا منا وقد صبأ وهو ساحر كذاب، فلا تطيعوه ولا تسمعوا لما معه، فنحن أعلم به، وقد سفه أحلامنا، وضلل أديانا، وأكفر آبائنا، وفرق آلافنا، وأفسد أحداثنا وعبيدنا ونساءنا.

ثم كان هو ﷺ يرجم ويضرب الضرب المبرح، ويداس ويطرح على رأسه الفرث والتراب ويلقى من المكاره هو ومن اتبعه ما يطول شرحه. فلم يكن لأصحابه مع شرفهم وشرف أهلهم قرار، ولا أمكنهم المقام للشدائد التى تنالهم، حتى فروا بأديانهم فى الأمصار والبلدان حتى عبروا البحار وصاروا إلى أرض الحبشة، فتعرف قريش أخبارهم وإلى أين توجهوا، فترسل فى طلبهم وتغرى بهم وتنفر عنهم وتنفق فى ذلك الأموال. فأرسلوا إلى النجاشى ملك الحبشة وهو إذ ذاك نصرانى بمن ينفره عن المسلمين الذين فروا بأديانهم إلى أرض الحبشة، وحملت إليه قريش هدايا ولاطفوه، وقالوا له: إن هؤلاء قوم منا، وقد اتبعوا رجلاً منا فأفسدهم، وهو عدونا وعدو النصارى، وهو يقول فى المسيح: أنه عبد مخلوق، فسلموهم إلينا.

وكان هناك عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبى طالب ومعه أسماء ابنة عميس، وخالد بن سعيد بن أبى أحيمة، والزبير بن العوام، وعمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عقبة، ونحو مائة من وجوه المهاجرين، وكانت لهم مع رسول قريش إلى النجاشى مجالس وخصومات طويلة، فصارت العقبى للمسلمين. وقامت حجتهم، وعرفها النجاشى ملك الحبشة فأسلم واستبصر.

وما زال رسول الله ﷺ يعرض نفسه على أهل المواسم إذا اجتمعت قبائل العرب، وخرج إلى الطائف يدعو إلى الله ويقول: أنا رسول الله فمن يجيرنى حتى أبلغ رسالة ربى؟ وقريش تتبعه وتمنع من اتباعه. وقد عرض نفسه على القبائل، ومعه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب، وعمه أبو لهب يقول لتلك القبائل: نحن أهله وأعلم به فلا تسمعوا منه ولا تقبلوا قوله، فتلقى القبائل رسول الله بالجفاء، ويقولون له: قومك أعلم بك، ولو كان عندك خير لاتبعوك فأمسك عنا، إلى أن انتهى إلى ربيعة وإلى ذهل بن شيبان، فكلمهم وتلى عليهم القرآن، فقالوا: إنا على هذا الماء من ذى قار، وقد أخذ علينا كسرى ألا نحدث حدثاً، ولا نؤوى محدثاً، وهذا الذى أتيت به ودعوت إليه تكرهه الملوك، فإن شئت أن نجيرك إلا من الملوك فعلنا.

فقال ﷺ: ما أسأتم بالرد إذ أفصحتم بالصدق، إن هذا الدين لا يكون من أهله إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن أظهركم الله عليهم، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأفرشكم نساءهم أتطيعونه وتعبدونه حق عبادته؟ فتعجبوا من قوله ومن إقدامه على أن ملك كسرى يزول بدعوته ويصير ملكه لأصحابه، استبعاداً لذلك، واستعظاماً لملك كسرى إن يزول بجبابرة الملوك الأقوياء الأغنياء، فكيف يزول بهذا الوحيد الفقير؟ ثم يقولون هذا عاقل، ولم يكن ليقول هذا ويعرض نفسه للملوك إلا وهو على ثقة، ثم انصرف عنهم وما أجابوه.

وما زال يدعو ويعرض نفسه فى المواسم إذا اجتمعت العرب، إلى أن لقيته الأنصار، فسمعت منه وأجابوه وأسلموا، وخرجوا إلى المدينة ودعوا إلى الإسلام. ثم عاد قوم آخرون فى سنة أخرى وبايعوه وهو مقيم بمكة، ثم عادوا فى سنة ثالثة مع آخرين فبايعوه ورجعوا إلى المدينة وظهر الإسلام بها.

والأنصار رضى الله عنهم إنما قبيلتان عظيمتان من قبائل اليمن ذو بأس وشدة وأموال، وذو شوكة شديدة وعدد وعدة، قد ترددوا إليه، وسمعوا دعوته واحتجاجه، فأجابوه على البراءة من أديانهم التى كانوا عليها، ومن آبائهم، وعلى أن يبذلوا أموالهم ودماءهم، وعلى معاداة ملوك العرب والعجم فى طاعته وله ولأجله.

وكم قد أسلم وأجاب على هذه السبيل من قبائل العرب، كقبيلة أسلم، وكقبيلة غفار، وهما من قبائل خزاعة وكنانة، وكالذين أسلموا من عبد القيس وهم من فرسان ربيعة ورجالهم، ومن قبائل فزارة، ومن قبائل جهينة، على هذه السبيل.

وكم أسلم من أهل اليمن من ملوكها من حمير وغيرهم، إلى من أسلم من ملوك عمان من ولد الجلندى بن كركر. وكم قد أسلم من العجم والأنباط بصنعاء الذين كانوا جنود كسرى، وأخرجهم مع سيف بن ذى يزن لينتصروا له من ملوك الحبشة الذين قتلو أباه. ولعل قصتهم أن ترد عليك بأكثر من هذا الشرح.

فالذين أجابوه ﷺ وبهذه الشرائط وبلا حرب خلق كثير، وأمم عظيمة هى مذكورة، يعرفها أهل العلم، ومن أراد أن يعرف ذلك حتى يصير فى مثل حالهم قدر على ذلك ووجد السبيل إليه. فهؤلاء الذين أسلموا لله ومن خوف وتقرباً إلى الله، وهم عساكره.

ولما نشأت بدعة الخارجية[1] وهى أول بدعة نشأت فى الإسلام، ثم بعدها وبعد دهر طويل نشأت بدعة الإرجاء، ثم بعدها بدهر طويل نشأت بدعة القدر، وبعد بدعة القدر بدهر طويل نشأت بدعة الرفض. فكان العلماء يقولون لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فإنهم أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف أسيافهم.

وفاض الإسلام بالمدينة وفى هذه القبائل، وأقيمت فيها الصلاة، وأديت الزكاة، وأقيمت الجماعات والجمعة، وأقرئ القرآن، وصارت المدينة دار الهجرة؛ ورسول الله ﷺ مقيم بمكة محصور فى الشعب يؤذى ويقصد بأنواع المكاره هو ومن اتبعه، إلى أن هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق الهجرة المعروفة.

فهؤلاء الذين أجابوا بلا حرب، وقبل الحرب احتججنا، وهو موضع دلالتنا فى هذه الآية التى أخبر وهو فى تلك الحال أنكم ستجيبوننى، وإن كانت لنا فى الحروب والمحاربين دلائل أخرى لعلنا نذكرها لك فى كتابك هذا إن شاء الله.

فإن قيل: أو ليس قد كان يدافع عنه عمه أبو طالب وإن كان على غير دينه، ويشفع إلى قريش فيه، ويعاتبهم فى بابه، ويذكرهم بصدقه وأمانته وقد كان ﷺ معروفاً فيهم قبل الرسالة بمحمد الأمين، ويسألهم الكف عنه وعن أذيته. وقد نصره أبو بكر الصديق وصدقه وكاشف فى بابه، وأنفق ماله فى نوائب الإسلام وفى عتق المعذبين فى الله وأتبعه من أهل مكة جماعة. وأسلم

---

(١) هم الخوارج الذين خرجوا عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

عمر قبل الهجرة وكاشف، وقال: لا نعبد الله سراً، فكيف ادعيتم له الوحدة وعليه الغلبة وهو بمكة؟

قيل له: قد علمنا أنه حين دعا كان وحده والناس كلهم على خلافه، وليس فى إجابة هؤلاء ومدافعة أبى طالب طعن فيما استدللنا، بل هو من الدلائل على ما قال ﷺ قبل أن يجاب أنه يستجاب وينصر، ثم مع نصرة هؤلاء وإجابتهم له ﷺ ومدافعة أبى طالب، ما خرجوا ولا هو خرج من أن يكون ويكونوا بمكة مقهورين بمكة مغلوبين، حتى فروا من عدوهم بأديانهم.

فإن قيل: فإذا كان الله قد وعد هؤلاء الأنبياء بزعمك بالنصر والظهور فلم يفرون من أعدائهم؟ فقد فر موسى من فرعون ببنى إسرائيل ليلاً وخفيه ومنع من إيقاد النيران لئلا يراها فرعون وجنوده فيستدلوا بها عليهم ومعه الآيات والمعجزات، وفر عيسى من مكان إلى مكان بزعمكم وزعم النصارى، فإنها تقول فى أخبارها وأناجيلها أن يوسف النجار فرّ بعيسى وأمه إلى مصر من بيت المقدس خوفاً من هيريدس ملك بنى إسرائيل، فأقاموا بها أثنى عشر سنة ومعه بزعمكم وزعم النصارى الآيات والمعجزات، وفر صاحبكم من قريش وأقام بالغار ومعه أبو بكر ثلاثة أيام ومعه كما زعمتم الآيات والمعجزات.

قلنا: ليس فى فرارهم طعن فى اعلامهم، وما قالوا لا يفر ولا يتوقى فيكون فى فرارهم تكذيب، فإن كل شئ وعدوا به وقالوه قبل أن يكون قد كان وتم على ما قالوه وشرطوه قبل أن يكون.

وليس فى فرارهم أيضاً مقاربة لعدوهم ولا مداهنة، بل إنما احتاجوا إلى الفرار لترك المداهنة والمقاربة، ولشدة المكاشفة لعدوهم، والمبالغة فى إسخاطه وإرغامه، ولو قاربوا العدو واتقوه لما احتاجوا إلى الفرار.

فاحفظ هذا فإنك محتاج إليه، فإن قوماً زعموا أنهم أتباع الأنبياء من المسلمين، أجازوا على أنبياء الله وعلى من هو حجة الله على خلقه المداهنة والمقاربة للمشركين ولأعداء الدين، وأن الأنبياء يمدحون المشركين ويزكون أعداء الدين ويظهرون ذلك، ويذمون المؤمنين ويتبرؤون من الأنبياء والمرسلين

خوفاً من المشركين، ويزعمون أن حجتهم فى ذلك فرار رسول الله ﷺ واستتاره فى الغار ثلاثة أيام.

وقد بينا أن لا حجة لهم فى ذلك، بل هو الحجة عليهم، وأن الذى أخرج الأنبياء إلى الفرار شدة المكاشفة وترك المقاربة.

وقائل هذا لا يثق بأفعال الأنبياء وأقوالهم، ولا بتزكية من زكوه، ولا يلعن من لعنوه، لأنهم قد قالوا أنه قد يجوز أن يكون ظاهر الأنبياء بخلاف أسرارهم وضمائرهم، وأيضاً فإن الأنبياء لا يجوز أن يكون ظاهرهم بخلاف باطنهم وإن خافوا وإن قتلوا، وهذا أصل كبير فاعرفه.

فإن قيل: ادعيتم أن أعداء نبيكم من قريش والعرب واليهود والنصارى حرضوا على قتله وهو بمكة، وهو فى تلك الحال من الوحدة والذلة وضعف الأتباع، فمن أعطاكم هذا، ومن سلمه لكم؟

قيل له: إن من سمع أخباره وأخبار القوم معه يعلم ذلك، علمًا لا يرتاب به، كما يعلم أنهم قد كذبوه وعادوه وأ غضبهم ما أتاه وشرعه ودعا إليه، ولا فرق بين من قال: أنهم ما حرضوا على قتله، وبين من قال: ولا كذبوه ولا عابوه ولا برئوا منه، ولا أنكروا شيئاً أتى، ولا خالفوه، وادعى أنه هو أيضاً ماخالفهم، ولا عاب أديانهم وآلهتهم، ولا ادعى النبوة، ولا خالفهم فى البعث والنشر.

وقد حرضوا أيضاً على ذلك وهو بالمدينة وأعداؤه فيها معه من العرب واليهود والنصارى وهم كثير ونزول بالمدينة وحولها فى آطامهم وحصونهم محدقون بها كالإكليل وقد غدروا به، وأرسلت قريش إليهم فى ذلك، ودست غير واحد، وكان من عامر بن الطفيل وأزيد فى الأحوال التى كان فيها وحده فيصرفهم الله عنه بألوان الصرف، كما صرف أبا جهل وعقبة بن أبى معيط والذين كانوا بمكة، كما هو مذكور.

وكم دسوا له السم فى الطعام فصرفه الله عنه، وقد راموه منه فى طول حياته، وقد كان معهم وهو بالمدينة فى التبذل والتفرد والتطرح أكثر زمانه،

على مثل حاله وهو بمكة. وإنما كان يكون في جماعة في أسفاره وفي حروبه، فأما بيوته وحجرات نسائه فمن جريد النخل، وقد علم أهل العقل والتحصيل الفتك بجبابرة الملوك في حصونهم وقصورهم وهم وراء الأبواب الحديد، وقد تحرزوا بصنائعهم المشاركين لهم في نعمهم بعبيدهم، كصنيع شيرويه بكسرى ابرويز وقبله من ملوك فارس من كانت هذه سبيله. وكما جرى على المتوكل من المنتصر، ثم على ولده، إلى ما جرى من الفتك بمحمد بن المعتضد المسمى بالقاهر بالله، إلى المتقي، وإلى المستكفي، وإلى ما جرى بالإحساء على ذكيرة الأصفهاني من جنوده وأعوانه سنى تيف وخمسين وثلثمائة للهجرة في جوف داره وأحصن قصوره، وحوله وفي حجرته ومعه ممن له نوبة في حراسته وحفظه من الرجال المتسلحين أكثر من الفين فقتل وحده من بينهم، ورفع رأسه.

وليس في هؤلاء من أغضب الناس إغضاب رسول الله ﷺ، ولا من ادعى دعواه، ولا من أذكر عدوه بعلوته وأيقظه وبعثه على قتله وخرج إليه بذات نفسه وما يريد أن يعمله، مثل رسول الله ﷺ. فإنه أتاهم على الوجه الذي ذكرنا في الوحدة والفقر ورماهم بتلك العداوة، ثم قال: ولا تقتلوني، بل أنا أقتلكم وأسبيكم وأستبيح حصونكم، فكان كما قال.

فإن قيل: ومن سلم لكم أن المهاجرين والأنصار كانوا يعتقدون نبوته وصدقه، سيما وفي أهل ملتكم اليوم من طوائف الشيعة من يقول: إن أبا بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات والمهاجرين والأنصار ما آمنوا به قط ولا اعتقدوا صدقه ولا تعظيمه ولا إجلاله ولا توقيره، وما كانوا إلا زائرين عليه، معتقدين تكذيبه وافتعاله واحتياله، وإنما كان اتباعهم له هزءاً به، واغتيالاً له، وسخرية منه، وإرصاداً لزلالته وإفساد أمره ولإبطال تدبيره، ولمغالبته على الرئاسة، وأنهم ما أقاموا له وزناً قط[1]. وإنما كان الذين يعتقدون ما ادعيتم

---

(١) هذا كلام بعض الفرق المنحرفة من الشيعة والمعتدلون منهم وكبار علمائهم لا يقرونهم على ذلك.

فيه نفراً يسيراً، كانوا مغلوبين مقهورين بهذه الجماعات من المهاجرين والأنصار، وأنهم خرجوا من الدنيا على حال القهر والغلبة من هؤلاء المهاجرين والأنصار، ومعهم بذلك روايات وأقوال ونصوص يدعون أنها من صاحبكم، وتصنيفات قد ملأت الدنيا.

قيل له: إنا ما قلنا فى أبى بكر وعمر وعثمان وتلك الجلة والوجوه من المهاجرين والأنصار أنهم قد اعتقدوا تبرئته وصدقه، لمجامعة من ادعيت أن الشيعة لنا، وإنما قلنا ذلك بالتأمل لأحوالهم وبالاستنباط الذى قد ذكرنا لك، فلن يقدح ذلك فى علومنا، ولن يوحشنا خلاف من خالفنا كائنا من كان من خلق الله.

وقد شرحنا كيف كانت دعوته وعلى أى شرط كان إجابة القوم له؛ وقد علمنا قبل العلم بنبوته وصدقه أنه ﷺ قد كان يحب أبا بكر وعمر وعثمان، وتلك الجماعة من المهاجرين والأنصار يحبونه، ويواليهم ويوالونه، وأنهم كانوا ثقاته وبطانته وأمناءه على نفسه ودينه وأهله، وأنه ﷺ كان أحب إليهم من أهلهم وآبائهم وأنفسهم؛ كما قد علمنا أن أبا جهل وأبا لهب، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل، وابن العيطلة، وأمية بن خلف، وأبى بن خلف، وعتة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأولئك الملأ من قريش كانوا أعداءه وكذلك الملأ من اليهود، كبنى قريظة، والنضير، وكبنى القينقاع وكخيبر، وتلك القبائل من ثقيف، وغيرها من العرب، كانوا أعداءه وكان عدواً لهم يبغضهم ويبغضونه، ويعتقدون كذبه، وأنه مبطل، ولا فرق بين من ادعى فى أبى بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات من المهاجرين والأنصار أنهم ما اعتقدوا نبوته وبين من ادعى فيمن ذكرنا من قريش والعرب واليهود والنصارى أنهم ما اعتقدوا بغضاءه ولا كذبه؛ ومن انتهى إلى هذا فقد بلغ الغاية فى الجهل، ولا فرق بين من ادعى هذا على هؤلاء من المهاجرين والأنصار، ومن ادعى أن الروم والفرس والهند الذين كانوا فى زمانه وزمان نبوته ما اعتقدوا تكذيبه وإن كان قد ظهر منهم ما قد ظهر.

فإن قيل: فكيف صدت طوائف الشيع عن هذا؟

قيل له: هذا إنما يعرف بالتأمل والتدبر وإن كان يسيراً، فمن لم بتأمل ولم يتدبر ولم يستنبط يذهب ذلك عليه؛ ومما يزيدك علما بذلك، وأن باطن هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار كظاهرهم، وسريرتهم كعلانيتهم، وأن رسول الله ﷺ كان أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، أنهم قد بقوا بعده وملكوا الأمر واستولوا عليه، وامتدت أيديهم إلى ملوك الدنيا وممالكها، فجازوها وأنفقوها فى إعزاز دينه وتأكيد شريعته، وزهدوا فى المباح المطلق، وحموا نفوسهم وأبناءهم منه، وأدخلوا الأمم من الفرس والروم والهند وغيرهم فى دينه، وفرضوا عليهم تصديقه وإجلاله، ومن أبى القبول جعلوا دمه له وأوطئوا أعداءه وشانئيه الذل والسيف فى مشارق الأرض ومغاربها[1].

وقدم رحمك الله زهد رسول الله ﷺ فقد كان أزهد الناس فيما تناحر الناس عليه وتطاعنوا فيه وتفانوا لأجله. فقد كان ﷺ ملك من أقصى اليمين إلى بحر عمان إلى أقصى الحجاز إلى عرار العراق، واستولى على جزيرة العرب وكانت مقسومة بين خمسة ملوك، لكل واحد منهم شأن عظيم. هاداه غير واحدٍمن الملوك، وجبى ذلك كله فبذله، وحمى نفسه منه وأهله، وخير أزواجه على إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، وعلى أن من أراد الحياة الدنيا وزينتها متعه وسرحه سراحاً جميلاً[2].

وكان ﷺ مع هذا الملك العظيم أيبس الناس عيشاً، وأخشنهم لباساً. واعتبر من ذلك ببرده الذى يلبسه خلفاؤنا من بعده وقيمته مقدار دانقين،

---

(١) الفاتحون العرب لم يكرهوا أحدًا على الإسلام وتركوا لأهل البلاد الحرية في اعتناقه أو دفع الجزية، فمن اعتقد صحة الدين أمن ومن أبى فرضت عليه الجزية وترك له حرية البقاء على دينه، وكانوا يحمون لهم دور عبادتهم. حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امتنع عن الصلاة في كنيسة بيت المقدس حينما عرض عليه ذلك خوفا من أن يغلبهم عليها من يأتى بعده بدعوى صلاة عمر فيها.

(٢) راجع سورة الأحزاب ٢٨، ٢٩.

وبقدحه وخاتمه، وجميع ما صار عند خاصة أهله وعامة أنصاره. ثم توفى ولم يترك عيناً ولا ديناراً ولا شيد قصراً ولا غرس شجراً ولا شق لنفسه نهراً ولا استنبط لنفسه عيناً ورغب لأهله وأصحابه فى مثل ذلك.

وملك بعده أبو بكر الصديق رضى الله عنه جميع ذلك، ونفذ فيه أمره، وامتدت يده إلى بنى حنيفة وقوم مسيلمة، وغزا فارس، وافتتح الحيرة والقادسية وعين التمر وصاروا ذمة له، وجباهم الأموال العظيمة. وافتتح الشام وأوائلها ونفذ أمره فيها، فكان حاله فى الزهد تلك الحال التى كان عليها رسول الله ﷺ.

وقام بعده عمر رضى الله عنه فحوى ذلك كله، وافتتح إلى أقصى الشام وأخرج ملوك الروم منها واعتصموا منه بالخلجان والجبال، وافتتح مصر والصعيد الأعلى، وافتتح الجزيرة والعراق والسواد وفارس وكرمان وسجستان وكورة الأهواز، وما سقته دجلة، وما سقته الفرات وما سقاة النيل، وحملت إليه خزائن الملوك وذخائرهم، ومكث على ذلك عشر سنين، ثم قبض وحاله فى الزهد تلك الحال.

ثم قام بعده عثمان رضى الله عنه، فحوى تلك الممالك كلها، وافتتح خرسان عن أقصاها، وأخذ ملوكها وأصفهان من الجبال، وفى زمانه قتل المسلمون يزدجرد بن شهريار ملك فارس، وافتتح أذربيجان، وافتتح أرمينية، وجرجان وطبرستان وغير ذلك، واستولى على ملوكها وممالكها، وفتح المغرب وهى مسيرة سنين براً وبحراً وطولاً وعرضاً، وافتتح من جزائر البحر عدة جزائر عظيمة تكون مسيرة شهر طولاً وعرضاً، وجبى ذلك كله، ومكث على ذلك أثنى عشر سنة، وكانت مدته أطول، وامتدت يده، وملك وحوى أكثر مما ملكه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ثم نفض يده من جميع ذلك وزهد فيه مع قدرته عليه وتمكنه منه ونفوذ أمره فيه، وصار عند قوم عمر أزهد منه، لأنه رحمة الله عليه بر أقاربه من مال وولاهم، ولم ذلك عمر، فكان زهده يصغر فى جنب زهد عمر.

ثم قام بعده على رضى الله عنه، فحوى جميع ما حواه الخلفاء قبله وجباه ونفذ أمره فيه، إلا الشام[١] ومكث على ذلك نحو ست سنين، فنفض يده من جميعه وزهد فيه.

ثم اعتبر بزهد عمال أبى بكر وعمر والخاصة من أعوانهما، كعتبة بن غزوان وأبى عبيدة ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة وسعد بن أبى وقاص وعمار بن ياسر وبلال والنعمان بن مقرن وإخوته، وغيرهم ممن يطول الكتاب بذكرهم وشرح أحوالهم، وهو مذكور فى مواضعه، ولا يشك فى زهد هؤلاء إلا من شك فى زهد رسول الله ﷺ، ولا يبلغ ذلك إلا الجاهل القليل النظر البطئ التأمل.

فأما من نظر واعتبر وكان قصده التعرف والتبين، فإن ذلك يفضى به إلى العلم بأنه ما صحب نبياً قط قوم أزهد ولا أردع ولا أعلم من هؤلاء قبل أن يرجع إلى قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢] فلو كان غرض رسول الله ﷺ وأصحابه الدنيا والملك لكانوا وإن ابتدأوا بذكر الزهد فى أول أمرهم إذا ملكوا وقدروا عليها قد ساروا فيها سيرة طلاب الدنيا وملوكها وخطابها، وما لبثوا أن تظهر سرائرهم وضمائرهم عند القدرة.

بهذا جرت العادة، وهكذا أخرجت العبرة، فإن من تخلق للناس وتصبر خوفاً منهم واتقاء لهم ومدارة لهم، إذا قدر وتمكن تغير وزال عمال كان، وظهر مكنونه فلما دام أمر رسول الله ﷺ وهؤلاء واتصل على طريقة واحدة، علم العامل المتأمل أن سريرتهم كعلانيتهم، وظاهرهم كباطنهم.

وقد رغب قوم منهم فى المباح وفيما أحله الله لهم، ولا لوم عليهم ولا تعنيف، وإنما كان كلامنا فيمن زهد فى المباح المطلق منهم، وقد ملك هؤلاء ما لم يملك إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهرون وداود ومتى وعيسى، وإن كان الأنبياء خيراً منهم.

---

(١) لأن الشام كانت تحت امرة معاوية بن أبى سفيان خلال خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث نازعه معاوية الخلافة كما هو مبسوط في كتب التاريخ والسير.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .

وإنما ذكرنا هذا لأن اليهود والنصارى والمجوس وأعداء رسول الله ﷺ يقولون جهاراً، بحضرة المسلمين وفى دواوين السلاطين، وفى المحافل بحضرة الأمراء الأشراف:

أما الإسلام فقد كفيناه ودفع بعضه بعضاً، وقد كنا نقول سراً بيننا فى أصحاب محمد ونفسه أشياء تقولها اليوم الشيعة جهاراً وتزيد علينا فيه[1]، من أن أصحاب هذا الرجل وأتباعه وأنصاره ما كانت لهم بصيرة فى أمره ولا يقين مع الصحبة وطول المشاهدة ولا أقاموا له وزناً، وإنما طلبوا الدنيا والنهب والفارة.

وقد بينا فساد ذلك، وفيه من البيان أكثر من هذا، وفيما ذكرناه كفاية.

فإن قيل: افتستدلون على صحة دينكم بأن هؤلاء قد اعتقدوا بنبوة صاحبكم وصدقه، وإن ظاهرهم فيه كباطنهم، وها هنا قوم من اليهود والنصارى والمجوس والمنانية والهند هذه ليست سبيلهم فى أديانهم.

قيل له: ما ندفع هذا ولا نمنع منه، ولا نستدل على صحة الإسلام باعتقاد المهاجرين والأنصار بنبوة محمد ﷺ وصدقه ونبوته وزهده وزهدهم فى الدنيا، وإنما نعرف صحة الإسلام وأنه دين الله بغير هذا، وإنما كان كلامنا على من أدعى أن هؤلاء ما اعتقدوا صدقه ولا نبوته، فبينا فساد قولهم وبطلان اعتقادهم وأنه جهل، ثم صرنا إلى ذكر الدلائل والأعلام.

فمن ذلك أشياء نزل القرآن بها قبل كونها.

فمن ذلك قصة أبى لهب، وقد كان من المؤذين لرسول الله ﷺ، والمجردين فى مكروهه وطلب نفسه، وفى الصد عن اتباعه، فبشره الله بأن ذلك لا يضره ﷺ، ولا يغنى عن أبى لهب فيما قصد ما كسب من جاه ومال

---

(١) هكذا يتصد أعداء الإسلام بعض الخلافات المذهبية ليشوهوا بها وجه الإسلام، ولقد آن الآوان لرد هؤلاء على أعقابهم بالتقريب بين مذاهب المسلمين، وتنقية التراث الإسلامى مما علق به أو دسَّ فيه وقد بدأنا مشروعا في هذا السبيل صدر منه أكثر من أربعين كتابا.
ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمواصلة العمل فيه.

وولد وصداقة وإخوان، وأنه يخسر ذلك كله، وأنه وإمرأته يموتان على الكفر به ويصيران إلى النار. نزل ذلك بمكة وهما حيان سليمان، فكان ذلك كله على ما قال وعلي ما أخبر وكما فصل وفسر.

وهذه غيوب كثيرة لا يكون مثلها بالاتفاق ولا بالحدس ولا بالزرق، ولا يتفق لحذاق المنجمين أقل القليل من هذا. ومن عجيب الأمور أنها نزلت بمكة، وتلاها رسول الله ﷺ، وسمعها أبو لهب وجميع أعداء رسول الله ﷺ من قريش والعرب وغيرهم وهم أعوان أبى لهب، فهاجهم هذا القول فى عداوته، وزاد فى غيظهم وحنقهم، وأذكرهم بنفسه وهم معهم وفى أيديهم وفى قبضتهم، فما ضره، ولا تم لهم أمر فى الظفر بقتله، ولا على زلة يتبين فيه كذبه وسقوط قوله:

وهذا لا يقدم عليه العاقل إلا وهو على غاية الثقة بما يقول، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع عدوه عقله. ومنذ نزلت هذه السورة وإلى هذه الغاية يحرص أعداء رسول الله ﷺ أن يجدوا فى ذلك مطعناً فما وجدوا، وقد رجع بعضهم إلى بعض فى ذلك وتشاوروا فيه، وتعاضدوا وتعاونوا، فكان عليه ما انتهى إليه كيدهم أن قالوا: لما رأى عمه وإمرأته قد صمما فى تكذيبه وعداوته قال ذلك فيهما.

قيل لهم: قبل كل شئ قد تم ما قال على ما فسر وشرح، وحصل ذلك على وجه انتقضت العادة به، وظنونكم هذه لن تقدح فى هذا العلم، وهذا كاف فى جوابكم.

ثم قيل لهم: قد صنع مثل صنيع أبى لهب خلق كثير فما قال هذا فيه، ومنهم من أسلم. وأيضاً فلو قال فى أبى لهب أنه يسلم قبل إسلامه وأسلم لأمكن الخصم أن يقول: ما فى هذا دلالة، لأن الرجل عمه، وقد رأى إخوته حمزة والعباس وقد أسلما، وقد أسلم ولدا أخيه أبى طالب جعفر وعلى، فكيف لا يسلم هو أيضاً؟

فهذا كان أقرب وأظهر فى الرأى والتدبير، فلم يقل ذلك وقال غيره وخلافه، لتعلم أن هذا من علام الغيوب وكلامه عز وجل.

وقالوا لو أسلم لكان له أن يقول: إنما قلت سيصلى النار إن لم يسلم، وإن أقام على الكفر، كما قال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾(١).

قيل له: قبل كل شئ قد تم ما قال وما وجد له خلف، وحصل على وجه انتقضت العادة به كما بينا وقدمنا، وأخذت أنت أيها الخصم تقول لو لم يكن هذا ويتم بأى شئ كان يعتذر، وحصلت على تدبير ما لم يكن، وجهلت أيضاً اللغة وموضع العربية لأن قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ إنما هو جزاء، وليس بخبر عن أحد أنه سيفعل ذلك، وهذا كقول القائل: من سرق مالى قطعته، ليس بإخبار عن أحد أنه سيسرق ما له، ويجوز أن لا يسرق ماله أحد البتة مع هذا القول.

وقوله تبارك وتعالى فى أبى لهب وإمرأته أنه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾(٢) من تلك الأمور، وأنه سيصلى وامرأته ناراً ذات لهب، إخبار عن أمور ستكون فكانت كما قال، كقوله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٣)، وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٤). وكقوله عز وجل: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾(٥) فهذا باب.

وباب آخر
[فى الإنباء عن أمور غيبية]

وهو أن قريشاً والعرب لما أعيتهم الحيل فى أمر رسول الله ﷺ، كانوا يستروحون إلى أدنى غم يناله ﷺ، فمات ابنه إبراهيم وهو أكبر ولده وبه كان يكنى، ومات ابنه عبد الله، فسرت قريش بذلك، وقال بعضهم: ابشروا فقد

---

(١) سورة المائدة آية ٧٢.
(٢) سورة المسد آية ٢ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٢ .
(٤) سورة القمر آية ٤٥ .
(٥) سورة الإسراء آية ٥١ .

انبتر محمد، فأنزل الله عز وجل:﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(١). فانبترت ديانات قريش والعرب كلها وبطلت عن آخرها، ولم يبق على ذلك الدين عين تطرف، وتم أمره ﷺ وسطع نوره وعلا وقهر.

وفى هذا غيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون؛ ثم وردت على وجه يغيظ ويغضب ويبعث على الوثوب به وعلى قتله وعلى إطفاء نوره، وقد حرضوا على ذلك فما تم. وهذا قول لا يورده العاقل على الوجه الذى أورده رسول الله ﷺ إلا وهو على غاية الثقة بالله والسكون إلى ما يوحيه إليه عز وجل، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع عدوه عقله، وكانت قريش تقول فيه لما مات بنوه: محمد صنبور، أى منقطع الأصل منبتر الذكر.

وقيل لأعرابى: كيف نخلك؟ فقال: صنبر أسفله وعشش أعلاه، أى ضعف أصله وعشش أعلاه فبطل كله وزال الانتفاع به.

والكوثر هو على وزن فَوْعل، كنوفل وحوقل، وهو الكثير من الجميز خاصة فيريد عز وجل: إنا أعطيناك الكوثر من التأييد والنصرة والحجة والعزّ والثواب والأجر، وفيه دلالة على بطلان قول من قال: إنا أبا بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات من المهاجرين والأنصار كانوا أعداء رسول الله ﷺ وشانئيه، وأنهم قصدوا تغيير القرآن، وتبديل دين رسول الله ﷺ، وإماتة نصوصه، ودفع وصيته وخليفته، ففعلوا ذلك وقهروا وغلبوا وكانت الغلبة لهم، وخليفة رسول الله هو المغلوب المقهور، وهم الغالبون القاهرون، وإن خليفة رسول الله ﷺ ووصيه ما تمكن إلى أن خرج من الدنيا.

قلنا: فلو كان الأمر كما قلتم لكان هذا قد كذب وكان يكون: إن شانئك هو الأقهر والأغلب والأظهر، وأنت الأبتر، فلو أنصفوا وتدبروا القرآن لما قالوا فى المهاجرين والأنصار هذا القول.

---

(٥) سورة الكوثر آية ١ و٢ و٣ .

وباب آخر

[فشلهم في التحريص على قتله صلى الله عليه وسلم]

وهو أن قريشاً لما حرضوا على قتل رسول الله ﷺ وإبادته وإطفاء نوره، وعلى التنفير منه والصد عنه والله تعالى يصرفهم بألطافه عنه مشوا إليه، وهم: الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأمية بن خلف، وعتبة بن خلف، والجماعة من قريش، قالوا: يا محمد، إنك قد سفهت أحلامنا، وكفرت أسلافنا، وعبت آلهتنا وأديانناً، وشتت كلمتنا، وقطعت أرحامنا، فهلم إلى أمر يكون بيننا وبينك، فتعبد أنت آلهتنا التى نعبدها ونعبد إلهك، وتعبد آلهتنا التى كنا عبدناها ونعبد إلهك، ثم تعبد ما عبدنا ونعبد ما عبدت؛ فإن كان معنا خير كنت قد أصبت منه، وإن كان معك خير كنا قد أصبنا منه، وتكون كلمتنا سواء، وتسالمنا ونسالمك، وتكون لنا ونكون لك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ .لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] فأخبر أنه لا يصير ولا يجيب إلى ما قالوا، ولا يقبلهم بهذا الشرط، ولا يكونون على هذا الوجه عابدين لله على الوجه الذى عبده، فكان كما قال.

وفى هذا غيوب كثيرة مفصلة جاءت كما أخبر، وهذا لا يكون إلا من علام الغيوب، ولو لم يكن من آياته إلا هذا لكفى وأغنى. فهذا يدلك على خضوع قريش واليهود والنصارى وجميع أعداء رسول الله ﷺ وانقطاعهم فى يده، وأنه لا مطعن فى آياته، ولهذا المعنى قال الله ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2] أى لو قاربتهم وأجبتهم إلى ما دعوك لأجابوك، ولو داهنتهم لداهنوك. فتأمل قوله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ كيف يجبههم بالإكفار والتجهيل

---

(١) سورة الكافرون آية ١-٦ .

(٢) سورة القلم آية ٩ .

والتضليل، وهم أشد عالم الله أنفة ونخوة وجبرية، ودفاعاً عن أنفسهم، ومواثبة لعدوهم، وهو بمكة معهم وفى أيديهم وفى قبضتهم، والعزة والغلبة والكثرة لهم لا له، فيهيجهم على نفسه بهذا القول، وبعثهم على مكروهه، فنجاه الله منهم.

وهذا قول لا يقوله عاقل وحاله ما وصفنا إلا وهو على غاية الثقة بالله، يدفعه عنه، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع عدوه عقله، فمن أى شئ تعجب رحمك الله؟ أمن إقدامه، أم من مصير الأمر إلى قوله وحكمه.

فاعرف هذه القصة واحفظها فإنها عظيمة جليلة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة «قل يا أيها الكافرون» فكأنما قرأ ثلث القرآن». وكان يقال فى صدر الإسلام لـ «قل يا أيها الكافرون» و«قل هو الله أحد» المقشقشتان، أى هما براء من الشرك، يقال للجرح إذا برأ واندمل: تقشقس الجرح.

وقوم من الكتاب وعمال السلطان يعرفون ببنى أبى البغل، يدعون أنهم من المسلمين ومن الشيعة وهم يميلون ميل القرامطة، ويلزمون صنعة النجوم، وبقاياهم بالبصرة فى سكة قريش، ومنهم أبو محمد بن أبى البغل، وهذا خلقه وصنعته، وهو حىّ إلى هذه الغاية وهى سنة خمس وثمانين وثلثمائة، يقولون فى «قل يا أيها الكافرون»: هى من البوارد ومن الأشياء التى لا معنى لها، ويتحدثون بذلك فى دواوينهم ومحافلهم، ويضربون فى ذلك الأمثال؛ وهذا لجهلهم بالأسباب، ولو كان لهم تحصيل وتدبير وقصدوا الإنصاف وطلبوا العلم من موارده لعلموا أن هذا من معجزاته، ولكن العجب قد شغلهم، وهم يعدون أنفسهم من الخاصة وهم أسقط من سقاط الغوغاء.

ولولا أن هذا شئ قد شاع فى الكتاب وأشباههم فى جميع البلاد لما ذكرته لك، ولكنه شئ قد دار وصار أهل الذمة مع القرامطة يلقون به العامة والضعفاء من المسلمين، وليس للإسلام قيم ولا ناصر بل كل السيوف عليه، فالله المستعان.

وأخرى تبين لك جهل هؤلاء ونقضهم ونقض كل طاعن فى القرآن، أن

الذى جاء بهذا القرآن ادعى أنه كلام الله وقوله، وأن الجن والإنس لا يأتون بمثله ولا بمثل سورة منه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنه حجة الله على خلقة إلى يوم القيامة؛ وقد سمعه الناس كلهم منه وقد طالبهم أن يأتوا بمثل سورة منه فلم يأتوا مع شدة الحاجة إلى ذلك، وقد بذلوا ماهو أعز وأعظم فى دفعه وإبطال أمره من الأموال والأنفس والأولاد.

وإذا كان هذا شأنه من السخف والركاكة، وفيه الكذب والتناقض على ما يدعى هؤلاء، أعداء الإسلام، فكيف يحتج عاقل بما هذا سبيله؟ وكيف لم يقل أعداؤه له: تتحدانا بشئ ركيك بارد غث متناقض؟ وكيف لم يقل أعداؤه له ذلك؟ وكيف يتبع ويطاع من هذا سبيله؟ وكيف لم يقل أعداؤه لأتباعه: يا ويحكم فارقتم دينكم، وأنفقتم أموالكم وسفكتم دماءكم، وعاديتم الأمم، واتبعتم رجلاً حجته هذا القرآن وفيها الكذب والتناقض؟

ومثل هذا لا يطاع ولا يتبع، بل يكون فى سقوط المنزلة بمحل من يركب قصبة ويركض فى الأسواق ويقول: أنا الملك، وأنا الأمير، ويشتم الملوك والأمم والرؤساء، ويتعادى خلفه الصبيان؛ ومثل هذا لا يعاديه أحد ولا يضربه ولا يسبه فضلا أن يقتله، لأنه لا يضر أحداً ولا يغضب عاقل من فعله وقوله وإن شتمه وتواعده. فلم غضب أولئك العقلاء من قريش والعقلاء من العرب والدهاة من اليهود والنصارى وطبقات الأمم والملوك منه ومن أفعاله، وبذلوا أموالهم وأولادهم ودماءهم فى عداوته وفى الصد عنه والمنع من اتباعه. ورحلوا إلى الملوك يشكونه ويضجون منه، ويبعثونهم على قتله، ويخوفونهم سطواته وغلبته على ممالكهم؟ فقد رحلت قريش إلى النجاشى ملك الحبشة فى هذا، ورحلت نصارى العرب إلى قيصر ملك الروم فى هذا، وقد صار النضر بن الحارث بن كلدة إلى الفرس فى هذا، وكان من كسرى أبرويز فى هذا ما هو مذكور ولعله أن يرد عليك، وهذا مع[1] أنه جواب لكل عدو لرسول الله ﷺ، فهو كاف.

---

(١) في الأصل: مع ما.

وباب آخر
[نصر الله للضعفاء]

وهو ما وعد أصحابه من المهاجرين والأنصار والمكيين فى حال ضعفهم أن الله سينصرهم ويمكنهم ويقويهم ويظهرهم، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وتكون العقبى لهم؛ وتلا بذلك القرآن وخلده وأسمعه عدوه ووليه، فقال عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ...﴾ إلى قوله ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1]؛ فتمكن أصحابه وخلفاؤه، فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وكانت العقبى لهم.

وفى هذا غيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون فكانت كما فصل وكما أخبر وفسر، لتعلم أن هذا قول الله وكلامه، وأن محمدا رسوله. وهذا فى سورة الحج وهى مكية، ولو كانت مدنية لكان فيها من الدلائل مثل ذلك، ولكنها إذا كانت مكية كانت آكد فى الحجة لأن ضعفهم إذ ذاك أشد. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾، ولقولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، ولكفرهم بديانات قريش والعرب هم المهاجرون خاصة. وفى هذه الآية دلالة عى صحة إمامة أبى بكر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، وشهادة بأنهم أئمة هدى، وأن طاعتهم طاعة الله، لأنهم من المهاجرين والمكيين والتابعين ومن الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لقولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، وهم الذين تمكنوا وتولوا لالأمر ودعوا إلى الله وفعلوا ما قاله الله، كما هو مذكور فى الآية.

ولو كانوا منافقين أو مشركين أو مرتدين كما تدعى ذلك عليهم طوائف الرافضة لكان هذا الخبر قد أخلف وكذب، ولكان الذى أتى به وتلاه ليس بنبى بل كذاب، لأن هؤلاء الذين تملكوا وتمكنوا وكان الأمر والسلطان والقهر والغلبة

---

(١) سورة الحج آية ٣٩ وما بعدها.

لهم؛ فزعمت الرافضة أنهم بدلوا القرآن وأحرقوه، وغيروا النصوص، وعطلوا الدين، وغيروا الطهارة والآذان والمواقيت والصلاة والصيام والمناكح والطلاق، وأماتوا السنن، وأحيو البدع؛ وكان خليفة رسول الله ﷺ ووصيه مغلوباً مقهوراً يظهر ما يظهرون من الشرك، ويجوز أحكامهم عليهم، فأين صدق هذه الآيات.

وقد كان ينبغى أن يكون على ما يدعيه الرافضة أن تكون التلاوة: «والذين إن مكناهم فى الأرض عطلوا الصلاة والزكاة وأماتوا النصوص وقهروا الوصى المنصوص عليه، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف» فتعلم أن هؤلاء قد ذهبوا عن القرآن وفارقوا الدين، وتعلم أن هؤلاء السلف على الحق، وأن الله تولى نصرهم كما وعدهم والله لا ينصر إلا أولياءه وأحباءه وأهل طاعته.

وقد كان المهاجرون يحتجون بهذا. قال صعصعة بن صوحان ــ وقد كان رحل إلى عثمان فى شأن قوم كانوا قد أساءوا فسيرهم وحالهم معروفة ـ: ما رأيت أسرع جواباً من أمير المؤمنين عثمان، قلنا له: أخرجنا من ديارنا أن قلنا ربنا الله، فقال: كذبت ليست لك ولأصحابك ولكنها نزلت فينا معشر المهاجرين، أخرجنا من ديارنا أن قلنا ربنا الله، فمنا من مات بأرض الحبشة، ومنا من مات بالمدينة، فنصرنا الله ومكننا وأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وكانت العقبى لنا. وهذا لا يذهب على متأمل وإنما ذهب على أهل الغفلة.

باب آخر

[معجزة الإسراء]

وهو أنه ﷺ أسرى به فى ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عاد من ليلته إلى مكة، ومدة السفر فى ذلك مقدار شهرين أى ذهاباً وإياباً، وهذا لا يفعلة الله إلا للأنبياء فى زمن الأنبياء. ولما عاد رسول

الله ﷺ تحدث بذلك فى أهله، فقالت له أم هانئ بنت أبى طالب: لا تتحدث بهـذا، فـوالله لا صـدقك الناس، وليكفـرن بك من آمن بك، وليكذبنك من صدقك. فقال ﷺ: إن ربى أمرنى أن أخبر الناس بذلك وأن أبا بكر يصدقنى ويشهد لى.

فخرج وأخبر قريشاً بذلك فسرهم هذا. وقالوا: الآن يظهر كذبه وينقطع الناس عنه، قوموا بنا إلى صاحبه ابن أبى قحافة لنخبره بما قال صاحبه. وكان أبوبكر ثقيل الوطأة على قريش وأعداء رسول الله، فإنه كان يدعو إلى نبوته، ويخطب بآياته، وكان وجيهاً فى الناس، عالماً بقريش، باين الفضل فيهم، فكانوا يقصدونه بالمكاره لهذه الخصال التى كانت تضرهم. وقد استدعى خيارهم ووجوههم إلى الإسلام، وأنفق ماله فى نوائب الإسلام ونصرته، وكانوا يطلبون شيئاً يصده عن رسول الله ﷺ ويمنعه من أتباعه.

فأتوه وقالوا له: يا أبا بكر، ما زال صاحبك حتى أتى بكذبة خرج بها من أقطارها. قال أبو بكر: حشاه، وما هو؟ قالوا: زعم أنه أسرى به فى ليلة إلى بيت المقدس. فقال أبوبكر: إن كان قال ذلك فقد صدق. قالوا: يا ابا بكر، أتصدقه فى هذا والعير تطرد فى ذهابها شهراً وفى رجوعها شهراً، أيبلغه فى ليلة واحدة؟ قال أبوبكر: أنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة واحدة فأصدقه، وبعد السماء عن الأرض أكثر من بعد بيت المقدس من مكة؛ قوموا بنا إليه نسأله عن ذلك.

فأتوه، فقال له أبو بكر: ما شئ بلغنى عنك يا رسول الله أنك أتيت بيت المقدس فى ليلتك؟ فقال نعم يا أبا بكر، صليت بكم فى هذا الوادى، فأتانى آت، فأيقظنى وأخرجنى وجاء بدابته فقال: اركب فأرفصت، فقال لها جبريل: اسكنى، فما حملت خيرا منه. فسارت بى، وإذا حوافرها تقع مدى بصرهاو وكنت إذا أتيت صعوداً قصرت قوائمها، وإذا أتيت حدوراً طالت قوائمها، فأتيت بيت المقدس؛ وذكر صلاته ودخوله إليه ورجوعه. فقال له أبوبكر: يا رسول الله، هل تستطيع أن تصف لنا بيت المقدس؟ فقال: نعم. فوصف مدخله

والمسجد وسقوفه وما فيه شيئاً شيئاً، وكان إذ ذاك فى أيدى الروم، وكان ملك الشام لهم وبعضه فى أيدى اليهود، فقال أبو بكر: أتسمعون؟ وكان فعل أبو بكر ذلك ليعرف الناس صدق رسول الله ﷺ فيما ادعى.

فقالت قريش فإن لنا عيراً بالشام عرفت خبرها؟ فقال: نعم، مررت بهم فى ذهابى، وهم فى موضع كذا، وقد ندَّ لهم بعير من حس دابتى فدللتهم عليه، ورجعت عليهم وهم نيام وقدح فيه ماء وقد خمروه، فنزلت وكشفته وشربت وخمرته.

ثم قال: وآية أخرى أنهم يردون عليكم يوم كذا وقت طلوع الشمس، وتقدم عيرهم من ثنية كذا، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان، إحداهما برقاء والأخرى سوداء، فأرصدت قريش لذلك اليوم، فقال قائلهم: هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت وأمامها الجمل الأورق وعليه الغرارتان كما وصف. وسألوهم عن البعير الذى ندّ وعن القدح الذى كان فيه الماء فأخبروهم بذلك كما وصف، وأنهم وجدوا القدح فارغاً بعد أن كان فيه ماء.

فتأمل ما فى هذا من الآيات والمعجزات والعلامات الواضحات البينات التى لو لم تكن إلا هذه لكفت وأغنت فى الدلالة على نبوته.

فمنها مصيره ورجوعه فى ليلة واحدة، ومنها إخباره بالوقت التى ترد فيه عير قريش على أى سبيل ترد، فكم فى هذا من الغيوب.

فإن قيل: ومن سلم لكم أن هذا قد كان على ماوصفتم لنا، وكيف علمتم هذا، وما طريق العلم به؟

قيل له: قبل كل شئ قد علمنا أنه ﷺ قد احتج بالإسراء وجعله قرآنا يتلى وقد سمع هذا جميع أعدائه من قريش واليهود والنصارى وهم معه وجيرانه وأشد الناس عليه وأحرصهم على عثرة تكون له أو عيب يكون فيه، وهنالك أصحابه ومن قد اعتقد صدقه ونبوته ولم يتبعه إلا لأنه نبى صادق وعاقل لا يحتج على عدوه ووليه بما لا يقوم برهانه، ثم لا يرضى أو يأتى فى

ذلك بقرآن يتلى ويضيفه إلى ربه ويستطيل بذلك على عدوه ووليه، وليس معه فى ذلك إلا الدعوى الخالية من كل الحجج؟ هذا لا يفعله عاقل، وعقل رسول الله ﷺ عند عدوه فضلاً عن وليه فوق العقول.

وأخرى أن من فعل هذا على ما يدعيه الخصم لا يتبعه أحد ولا يصدقه أحد بل يرجع عنه من قد اتبعه، إذ ليس معه إلا الدعوى على ما يدعيه الخصم، وكل أحد يمكنه أن يدعى أنه قد أسرى به فى ليلة واحدة من البصرة إلى بيت المقدس أو من العراق إلى بلاد الهند وما تبينت بما هذه سبيله، فتعلم أن الحجة بذلك قد قامت واتضحت.

وأخرى ما جرى بين قريش وبين رسول الله ﷺ وبين قريش وأبى بكر الصديق، وما كان فى ذلك من طول المراجعة، ومن عنى بذلك يعلم أن الأمر كما حكينا ووصفنا علماً يقيناً لا يرتاب به.

كما يعلم فرار المهاجرين إلى أرض الحبشة، وإخراج قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة فى طلبهم، وما كان لهم معهما مع النجاشى من المخاطبات والمراجعات، إلى أن صارت العقبى للمسلمين.

وكما يعلم خروج رسول الله ﷺ إلى المواسم وعرضه نفسه على القبائل، وما كان له معهم من المحاورات والمراجعات والمخاطبات.

وكما يعلم خروجه إلى الطائف وعرض نفسه، وما كان له معهم من المراجعات والمخاطبات.

وكما كان له مع قريش بمكة فى حفل بعد حفل ومرة بعد مرة، وفى مشيهم إلى أبى طالب ليكفه عن مخالفتهم وتجهيلهم وذكر آلهتهم، وما تعاهدوا عليه من عداوته وعداوات أصحابه، ومن التجريد فى قصدهم بالمكاره، وما كتبوه فى ذلك. وفى ترك مبايعتهم ومناكحتهم ومعاملتهم، وما أشبه ذلك من الخطوب التى كانت منهم، فمن رسخ فيما هذا سبيله، عرف قصة الإسراء وما كان لرسول الله ﷺ فى ذلك مما تقدم ذكره، ومن لم يكن هذه سبيله لم يعلم، ولكل أحد سبيل إلى أن يعلم ذلك.

فتأمل رحمك الله ما فى ذلك، وقول أم هانئ، واحتجاج قريش فى أن المسير فى ذلك يكون فى شهرين فكيف تم فى ليلة واحدة، ومطالبتهم بالحجة فى ذلك، ثم مسألتهم عن عيرهم الى بالشام، ثم مصيرهم إلى المكان فى الوقت الذى ذكر رسول الله ﷺ أن العير ترد فيه وتفقدهم صورتها وما تقدمها، ثم مسألتهم أهل العير عن القدح لتعرف عقول قريش وشدة فطنتها وعنايتها بأمر النبى والتفقد لأحواله وانظر كيف قد سألوا عن ذلك مما يمكن العاقل أن يسأل عنه ويتكلم فيه.

وانظر إلى فطنة أم هانئ بنت ابى طالب وخوفها ممايخاف مثله، وأن هذا الأمر إن لم يقم على الدعوى به حجة لم يصدقه أحد، بل يكذبه من صدق به ويكفره من آمن به، لتعلم كذب الحداد، وأبى عيسى الوراق والحصرى، وابن الراوندى، وهؤلاء علماء الإمامية ورؤساؤهم وعليهم يعولون، وإلى كتبهم يرجعون. ولكل هؤلاء كتب يطعنون فيها على الأنبياء، ويدعون على قريش والعرب الجهل والبلادة والغباء وأن رسول الله ﷺ خدعهم وسخر منهم.

وهذه الكتب منقوضة فد نقضها غير واحد من المعتزلة، والمطاعن على الأنبياء، كلهم إنما من جهة هؤلاء الشيع، والإمامية تواليهم وترجع إلى أقوالهم، فاعرف هذا فإنه من العجائب وبك إلى معرفته أشد الحاجة.

فمن كتب الحداد فى هذا الشأن كتابه «الجاروف» وكتابه «الأركان»، وكتاب الحصرى «فى تسوية أصحاب الكلام بالعوام»، وكتاب «الزمردة» وكتاب «غريب المشرقى» وكتاب أبى عيسى الوراق، وكتاب حنين «البهائم»، وكتاب «التاج» فى القدم لابن الراوندى، و «الزمردة» و«الفريد» و«التصفح» وكتاب «نعت الحكمة» فى الطعن فى حكمة الله، وكتاب «الدامغ» يطعن فيه فى القرآن وغير ذلك من كتبهم.

وفضيحتهم فى هذه الكتب واضحة، وليس لرسول الله ﷺ أعداء مثلهم والشيع تتوالاهم لأنهم عملوا كتباً لهم فى الطعن فى المهاجرين والأنصار.

فـمن هـذا العـجب، أن قـومـاً يدعـون أنهم من المسلمـين يوالون هؤلاء ويرجعون إلى كتبهم، فتبين رحمك الله الحال فى ذلك، لتعلم أنه لا يطعن على المهاجرين والأنصار إلا من يطعن على الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنما تستر هؤلاء الملحـدة والزنادقـة بالتشيـع والإمامـة ليستوى لهم الطعن فى الأنبيـاء وتشكيك المسلمين فى الدين فاعلم ذلك.

وباب آخر
[الإخبار بمن يموت كافراً من أهل الشرك]

وهو مـا نزل بمكة فى رجـال بأعيانهم أنهم يصـرون على شـركهم إلى أن يموتوا، وأن الله سيذيقهم من عاجل الخزى فى الدنيا، وقد صنع مثل صنيعهم قوم علم الله أنهم يدخلون فى الإسـلام فلم يأت من عند الله فيهم مـا أتى فى أولئك.

فـمن ذلك مـا نزل فـي أبي جـهل: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ. وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ. أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[1]. فـقـال أبو جـهل: بم يهددني رب محمد وآنا أعز أهل البطحاء وأكرمهم؟ فأنزل الله في استهزائه بالزقوم وقوله: إنه التمر بالزبد فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[2] أي بزعمك.

نزل هذا كله فيه وهو يومئذ حي سليم فأذاقه حر الحديد ببدر، ومات علي الكفر كما قال وكما أخبر.

ونزل في الأخنس بن شـريق الثقفي حليف بني زهرة من قـريش: ﴿وَيْلٌ

---

١) سورة القيامة آية ٣١ وما بعدها.

(٢) سورة الدخان آية ٤٣ وما بعدها.

لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾[1] فمات علي كفره.

ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار، وكان شديد الرد علي الله وعلي رسوله، شديد العداوة والإرصاد. وقد كان رحل في عداوة رسول الله ﷺ إلي فارس، وطلب ما يكيد به الإسلام والمسلمين، فوجد أحاديث رستم وأسفنديار والفرس فاشتراها وقدم بها مكة فجعل يتحدث بها. وكان رسول الله ﷺ إذا قام من مقعده خلفه فيه النضر وحدثهم بتلك الأحاديث وقال: حديث محمد عن عاد وثمود والأمم من هذا، بل هذا أحسن. فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2]، ونزل فيه غيرها أيضاً. وقيل: يوم بدر أصابته جراحة ذهبت بقحف رأسه، وحصل مع المسلمين في جملة المأسورين وقال: لا أذوق لهم طعاماً ولا شراباً ما دمت في أيديهم، فمات من الضربة وصار إلي النار بعد أن أذاقه الله العذاب المهين في الدنيا كما قال وكما أخبر.

ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي وكان من الأشداء علي المسلمين، فقال لقريش حين حضر الموسم: إن الناس قادمون عليكم وسائلوكم عن صاحبكم، يعني رسول الله ﷺ، فماذا تقولون؟ قالوا: نقول مجنون، قال: يكلمونه ولا يجدونه مجنوناً، قالوا: نقول: شاعر. قال: فهم أصحاب الشعر يقولونه ويروون بسيطه وهزجه فلا يجدونه شاعراً. قالوا: فنقول كاهن، قال: فقد رأوا الكهنة وتكلفهم وكذبهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ ففكر وقدر ونظر وعبس وبسر كما وصفه الله تعالي في سورة المدثر، ثم قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[3]. وكان له عدة بنين، وكان ذا مال واسع، فكان بنوه يحضرون

---

(١) سورة الهمزة آية ١-٤ .

(٢) سورة لقمان آية ٦ .

(٣) سورة المدثر آية ٢٤ .

ويشهدون عقلاء، فأنزل الله فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً. وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ إلي قوله ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1] فلم يزده الله مالاً ولا ولداً بعد هذا كما أخبر، ثم مات كافراً كما قال. وقد كان عند نزول ذلك حياً سليماً.

فانظر كم في ذلك من الآيات من الإخبار بالغيوب، ومن عجزهم عن القرآن أن يأتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة والجزالة، فلم يتأت لهم ذلك مع حاجتهم إليه واجتهادهم فيه. وفصاحة القرآن وجزالته وبلاغته دلالة أخري غير دلالة الإخبار بالغيوب.

باب آخر
[معجزة إنشقاق القمر]

وهو ما كان بمكة من انشقاق القمر؛ فإن رسول الله ﷺ مر بمكة في ليلة قمراء ومعه نفر من أصحابه، فاجتاز بنفر من المشركين، فقالوا له: يا محمد، إن كنت رسول الله كما تزعم فاسأل ربك أن يشق هذا القمر، فسأل الله ذلك فشقه، فقال المشركون: ساحروا بصاحبكم من شئتم فقد سري سحره من الأرض إلي السماء. فنزلت القصة في ذلك. وهذا من الآيات العظام والبراهين الكرام علي صدقه ونبوته ﷺ.

فإن قيل ومن أين لكم أن القمر قد انشق له كما ادعيتم؟ أتعلمون ذلك ضرورة أم بدلالة؟ أو ليس النظام قد شك في هذا وقال: لو كان قد انشق لعلم بذلك أهل الغرب والشرق لمشاهدتهم له؟ وهذا شئ سيكون عند قيام الساعة ومن أشراط القيامة، فبأي شئ تردون قوله وتبينون غلطه إن كان قد غلط؟[2]

---

(١) سورة المدثر الآيات ١١-٢٦ .

(٢) لقد نشرت وكالة الفضاء الأمريكية صورا لشق عظيم وقديم في القمر، قدر العلماء أنه تم في وقت يتفق مع الوقت الذى رأى فيه أهل مكة انشقاق القمر.
وهكذا فإن المكتشفات الحديثة تؤكد صدق هذه المعجزة، ونحن نسوق ذلك لهؤلاء المشككين لا للمسلمين لأن المسلمين يأخذون أدلتهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قيل له: ما نعلم ذلك ضرورة ولكن نعلمه بدلالة، فمن استدل عرف، ومن لم يستدل لم يعرف، ومن قصر عن الاستدلال والنظر غلط كما غلط إبراهيم النظّام.

فوجه الدلالة علي ذلك أن رسول الله ﷺ قد احتج بذلك علي المسلمين والمشركين وتلا هذا القول عليهم من سورة القمر: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[1]. ولم يكن ليقدم ويحتج علي العدو والولي بما لا حاجة فيه، ويشير إلي أمر ظاهر يشار إليه ويشاهده الناس.

فلو أراد أن يكذب ويرد قوله مازاد علي هذا؛ هذا لا يقع من عاقل ولا يختاره محصل كائناً من كان، فكيف يقع ممن يدعي النبوة والصدق وهو أشد حرصاً بالناس كلهم علي تصديقه واتباعه؟ فلو أراد أن يكذبوه ويردوا قوله ما زاد علي هذا، وهذا لا يذهب علي متأمل.

فإن قيل: فما تنكرون علي من قال إنه ﷺ، ما احتج بهذا علي نبوته؟ قيل له: لا فرق بين من ادعي ذلك أو ادعي في جميع ما أتي به من القرآن وغيره أنه ما احتج بشئ من ذلك علي صدقه ونبوته.

ومما يزيدك علماً بذلك ويبين لك غلط النظام وجهل كل من ذب عن ذلك قوله تبارك وتعالي: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2] فانظر كيف قال: اقتربت الساعة، وأخبر عن أمر قد كان ومضي، ثم قال علي نسق الكلام: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، فجاء بأمر قد كان وانقضي ومضي فنسق علي الماضي بالماضي، ولو كان علي ما ظن النظام لقال: اقتربت الساعة وانشقاق القمر، أو كان يقول وسينشق القمر، فلما لم يقل ذلك وقال: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ علمت أنه أخبر عن شيئين واقعين قد وقعا وكانا وحصلا.

---

(١) سورة القمر الآية ١ .

(٢) سورة القمر الآية ١-٢ .

ثم قال علي نسق الكلام: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ فأخبر أنها آية مرئية وحجة ثابتة. ثم قال علي نسق الكلام: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾[1]. وهذا لا يقال فيما لم يقع ولم يكن. فتأمل هذا التقريع والتعنيف لتعلم أنه أمر قد كان، ولا يسوغ أن يقال في أمر لم يكن، ولم يقع هذا القول.

وأيضاً فإن ما يقع في القيامة وعند قيام الساعة لا يكون حجة علي المكلفين ولا يعفون في ترك النظر والتأمل له فإن التكليف حينئذ زائل مرتفع.

فأما قول النظّام: فلم لا يشاهد هذه الآية كل الناس، فليس هذا بلازم لأن الناس لم يكونوا من هذا علي ميعاد وإنما هو شئ حدث ليلاً وما كان عندهم خبر بأنه سيحدث وسيكون في وقت كذا فينظرونه، وإذا كان كذلك فقد بطل ما ظنه.

يزيدك بياناً أن القمر قد ينكسف كله فلا يري ذلك من الناس إلا الواحد بعد الواحد والنفر اليسير لنومهم، فكيف بانشقاق القمر الذي انشق ثم التأم من ساعته بعد أن رآه إولئك القوم الذين طلبوه[2].

وأيضاً فقد يجوز أن يحجبه الله عز وجل لمصلح العباد إلا عن أولئك القوم، لأنه قد يجوز أن يكون في بعض البلاد من المكذبين والمحتالين في تلك الساعة من لو رأي ذلك لقال: إنما انشق شهادة لي علي صدقي، ولا يكون ما ذكره النظّام قد جاء في ذلك من هذا الوجه أيضاً، ويبطل ما توهمه.

ومدار الأمر أن يكون هذا أمراً قد كان وقد ذكرنا الدلالة علي كونه فلا عذر لمن شك فيه.

ومن الدلالة أيضاً أن ذلك قد كان، أن الصحابة بعد رسول الله ﷺ قد

---

(١) سورة القمر آية ٤-٥ .

(٢) الكشف العلمى الحديث عن انشقاق القمر والسابق الإشارة إليه يدل على أنه كان عاما وليس لفئة من الناس فقط.

تذاكروه فما فيهم من شك ولا ارتاب ولا توقف، بل وقع إجماع منهم علي كونه ووقوعه، فلا معتبر بمن جاء بعدهم ممن خالفهم.

وقد ذكر انشقاق القمر علي بن أبي طاب، وعبد الله بن مسعود، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك، وخطب الناس مدينة بن مالك بالمدائن وذكر فيه انشقاق القمر، وكانوا يقولون: خمس قد مضين: الروم والقمر والدخان والبطشة واللزام، يتذاكرون هذا بينهم رحمة الله عليهم.

وقد ذكرنا ما في العقل من الحجة في ذلك، وهي تلزم كل عاقل بلغته الدعوة، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم، وفي ذلك أتم كفاية. ثم ذكرنا تذاكر الصحابة بذلك وهي دلالة أخري، إذ لا يجوز عاقل بحضرة جماعة، وقد أقبل علي من يحدثه قد كنا في وقت كذا حتي حدث كذا وكذا ـ وهو يستشهد بالذي حدث بحضرتهم ويدعي عليهم وما عندهم علم ـ فيمسكون عن تكذيبه والرد عليه. ثم ذكرنا الإجماع السابق من الصحابة ليتأكد ذلك علي كل من كان من أهل الصلاة.

باب آخر

[الإنباء بانتصار الروم على الفرس]

مما كان بمكة. وهو أن الفرس غلبت الروم علي أرض الجزيرة وهي أدني أرض الروم وممالكها من سلطان فارس، فسر ذلك مشركي قريش لشدة فارس علي الإسلام والمسلمين، وكانت الروم ألين كنفاً علي المسلمين لأنهم أهل الكتاب، وكانوا يصغون إلي ما يرد عليهم من أخبار رسول الله ﷺ وما يدعوا إليه وما يأمر به وما ينهي عنه وكيف سيرته، ويتعجبون من ذلك ويستحسنونه، ويكون من ملكهم ما لعله يرد عليك، وساء المسلمين ظهور فارس عليهم، فأخبر الله نبيه ﷺ أن الروم ستظهر علي فارس بعد سبع سنين، وأن غم المسلمين سيعود فرحاً، وأنزل بذلك قرآناً يتلي، فقال عز وجل: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ

وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(١).

فلما نزلت هذه الآية تلاها رسول الله ﷺ علي أبي بكر الصديق، وبشره وبشر المسلمين؛ فخرج أبو بكر إلي المشركين وأخبرهم بذلك وتوعدهم وجادلهم وأغضبهم وأغاظهم. فقال أبي بن خلف: والله لا تغلب الروم أهل فارس ولا تخرجنهم من أرضهم. فقال أبو بكر: بل تغلبهم وتخرجهم، فإن شئت بايعتك، فبايعه علي تسع من الإبل إلي ثلاث سنين.

ثم دخل أبو بكر علي رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال له رسول الله ﷺ: إنها سبع سنين فزده في الخطر ومد في الأجل. فرجع أبو بكر إلي أبي بن خلف فاستقاله فأقاله، وقال: أن الذي يجيئ به صاحبك باطل. فعاوده أبو بكر المبايعة وزاد في الأجل أربع سنين، وزاد في الخطر ثلاثة من الإبل، وأخذ أبي بكر بكفيل، لأن أبا بكر علي الهجرة مع رسول الله ﷺ، وقد كان يذكر هذا وقد بدأ في فرار المسلمين بأديانهم، فأقام له ابناً كفيلاً، فأخرجت الروم فارس من أرضها يوم الحديبية، فأخذ عبد الله بن أبي بكر من أبي بن خلف وكان الخطر إذ ذلك مباحاً طلقاً.

فانظر كم في هذا من دلالة وآية بينة، وأنه أخبر أن الروم ستغلب فارس، وأن ذلك سيكون بعد سبع سنين، فكان كما أخبر وعلي مافصل وبين، والبضع فوق الثلاث ودون العشر، وأنظر إلي هذا الإقدام وهذه الثقة من رسول الله، وأنظر إلي قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾، يريد بهذا النصر ظهور حجة رسول الله ﷺ وما أقدم عليه أبو بكر وجاهد المشركين وبايع، فهذا المراد بالنصر لا لظهور الروم على فارس لأن ذلك معصية، وفارس والروم كفار والله لا ينصر الكفار بعضهم على بعض.

---

(١) سورة الروم الآيات ٢-٧ .

وانظر إلي هذا التقريع والتوبيخ وتأكيده الوعد بقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] وانظر كيف يستخف بهم ويستجهلهم وهم يسمعون وهم معهم وفي قبضتهم وفي أيديهم والغلبة لهم، وانظر كيف يقول له في آخر السورة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾[2] .

فتأمل هذا البيان وهذا الإفصاح وهذه المكاشفة والاستظهار والعلوّ والاستطالة بالحجة والعلم بهذا، وأنه قد كان علي ما ذكرنا وبينا يجري مجري العلم بقصة المهاجرين إلي أرض الحبشة ونظائرها مما قدمنا في قصة الإسراء وغيرها، فاحفظه وارجع إليه.

وتأمل حال أبي بكر الصديق في الإسلام وإسلامه في أول الإسلام وفي حال ضعفه وقله أهله وغلبة الشرك والمشركين عليهم، وفي الحال التي قد كان المستبصر فيها لا يظهر دينه ويخفي ما في نفسه، وانظر إلي بصيرة هذا الرجل ومكاشفته واستبداله بالمسالمة عداوة وبالراحة شقوة وبالغني فقراً وبالكرامة هواناً، كل ذلك للإسلام. ثم كان لسان المسلمين وأكبر داعية للرسول وأجل أعضاده وأنبه أعوانه، لم يقم مقامه أحد من المسلمين ولا سد مسده ولا حل من رسول الله ﷺ محله. وانظر إلي مقامه في شأن الإسراء، وفي شأن الروم، وفي غير ذلك مما يطول شرحه. وإنما احتجنا إلي ذكر هذا والتنبيه عليه لأننا في زمان يقول الكثير من أهله أنه ما أسلم قط وما زال عدواً لرسول الله ﷺ وللمسلمين، وأن عداوته كانت أشد وأضر من عداوة أبي جهل وعقبة ابن أبي معيط وأمثالهم، وأن القرآ كان ينزل علي رسول الله ﷺ بإكفار أبي بكر وعمر وعثمان وسعد وسعيد وأبى عبيدة وعبد الرحمن والجماعة من المهاجرين والأنصار، وكان رسول الله ﷺ يتلوه في المحاريب ويسمعه الناس

---

(١) سورة الروم الآيات ٤-٦

(٢) سورة الروم الآية ٦٠ .

كلهم ويحفظهم إياه، وأنه مكث نيفاً وعشرين سنة يفعل ذلك. وعند العلماء والفقهاء وأهل التحصيل والإنصاف، أنه كان يتقدم المسلمين في الإسلام، وأنه كان أشدهم غني، وأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يقدمه ويقدم عمر علي نفسه ويفضلهما علي منابره وهما من الأموات، حتي يقول أبو القاسم البلخي: ومن يفضل أمير المؤمنين لا يمكننا أن ندفع قوله، ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ولا يدفع هذا من له بالعلم بصيرة أو له فيه نصيب ولكنه عندنا ما أراد نفسه.

وقد كانت الشيعة الأولي تفضل أبا بكر وعمر عليه. قال: وقال قائل لشريك بن عبد الله: أيهما أفضل؟ أبوبكر أم علي؟ فقال أبو بكر، فقال له السائل: أتقول هذا وأنت من الشيعة؟ فقال: نعم، إنما الشيعى من قال مثل هذا، والله لقد رقي أمير المؤمنين هذه الأعواد فقال: ألا أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، أفكنا نرد قوله؟ أفكنا نكذبه؟ والله ما كان كذاباً.

ذكر هذا أبو القاسم البلخي في النقض عل ابن الراوندي إغراضه علي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، في كتابه «في نظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان». وينبغي أن تعلم أن الذين وضعوا هذا إنما قصدوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته لشده عداوتهم له وتستروا بالتشيع، وكان غيظهم علي أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعة لأنهم هم الذين اشتملوا علي رسول الله ﷺ في حياته ونصروه، ثم كانوا بعد وفاته أشد نصرة في دينه منهم في حياته، وأحدقوا بأبي بكر فغزاهم، وقتل مسيلمة، وأسر طليحه، ورد الردة، وغزا فارس والروم، وأذل أعداء رسول الله ﷺ بكل مكان.

واستخلف عمر، فأزال ملك فارس وهو أشد الملوك وأدخل ملكه في الإسلام، وألحق ملوك الروم بجبال الروم وخلجانها وأخرجهم من الشام ومصر ومن الجزيرة وأدخل هذه الممالك في الإسلام، وقتل الشرك وأماته، وأحيا الإسلام وبثه ونشره وبسطه وبناه وشيده وجعله عالياً علي الأديان كلها وظاهراً علي أمم الشرك جميعها. ففاظهم ذلك أشد الغيظ، ولم يمكنهم

المكاشفة بشتم رسول الله ﷺ، فاشتفوا منه بشتم هؤلاء وغرّوا من لا يعرفهم وقالوا لهم: ما هذا القرآن بشئ، وهو مغير لا تقوم به حجة، والإسلام مبدل، والفقهاء جهال كفار، إلي غير ذلك مما هذا سبيله وشرحه يطول، فاغتروا بهم وقبلوا منهم وصدوهم عن الإسلام فأوردوهم ما أصدروهم. وأنت تجد كثيراً من ذلك في التفسير لأبي علي وفي نقضه الإمامة علي ابن الراوندي، وفي غيرهما من كتبه، وفي كتب غيره من المعتزلة والله أعلم.

باب آخر

[انقضاض الكواكب]

فمن أعلامه التي حدثت وهو ﷺ بمكة، انقضاض الكواكب وامتلاء السماء بها من كل جانب علي وجه انتقضت به العادة وخرج عن المعتاد. وهذه آية عظيمة، وبينة جليلة، وواضحة جسيمة. وقد نطق القرآن بها فقال حاكياً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1].

فإن قيل ومن أين لكم هذا وقد سبقكم زمانه ونحن لا نؤمن بكتابكم ولا نقر بنبيكم؟ وخبرونا عن طريق معرفتكم بذلك هل هو ضرورة أم اكتساب؟

قيل له: العلم بذلك طريقه الاستدلال والاكتساب، ويتهيأ لكل عاقل من كافر ومؤمن أن يعرف ذلك ويجب عليه أن يعرف، وسبيله سهلة قريبة، فمن نظر واستدل عرف، ومن لم يستدل لم يعرف.

والدليل علي أن ذلك قد كان، أن رسول اله ﷺ قد تلا هذه السورة واحتج بذلك علي العدو والولي، فعلمنا أنه أمر قد كان ووقع، فإن الحجة به قد قامت وظهرت وقهرت، لأنه لا يجوز أن يقصد عاقل إلي قوم يدعوهم إلي صدقه ونبوته ويحرص في إجابتهم إلي طاعته والانقياد له ويريد منهم ذلك ثم يقول: من علامة نبوتي ودلائل رسالتي أن النجوم لم تكن تنقض وأنها الآن

---

(١) سورة الجن الآيات ٨-٩ .

فد انقضت، وهو يعلم أنهم يعلمون أن هذا أمر لا أصل له وأنه قد كذب فيما ادعي. هذا لا يقع من عاقل كائنا من كان، فكيف بمن يدعي النبوقو وعقله العقل المعروف الراجح الموصوف، ثم يقصد إلي أمر ظاهر مكشوف في السماء البارزة للخلق أجمعين المشاهدة للأولين والآخرين، سيما والعرب أعلم الناس بالكواكب والأنواء ومطالعها وسيرها، والثابت الراكد الذي لا يغيب منها، وقد كتب الناس عنهم علمهم بذلك، ودونوا منه شيئاً كثيراً، وأكثرهم مأواه تحت السماء، هي تسقفهم، ورؤيتهم لها ولكواكبها أمر دائم متصل لا يفتر، وقد سبقوا رسول الله ﷺ في السن والزمان والعلم بالكواكب، فكيف يقدم علي قوم هذه سبيلهم فيدعي هذه الدعوي وهم من العداوة له والطلب لعثراته وزلاته، ولأمر ينفرون به أصحابه عنه علي حال يقدمه ولا صدق يكون بعده؟ ومن هذه سبيله لا يكون لها رئاسة، ولا يتبعه أحد، ولا يكون له قدر، وقد يتبعه قوم عقلاء ألباء فضلاء لأنه نبي ولأنه صادق، وطاعة لله وتقرباً إلي الله، واستبدلوا باتباعه بالعز ذلاً وبالراحة كداً ابتغاء مرضات الله، وتكلفوا في إجابته بتلك الشدائد التي قد قدمنا شرحها، فكيف أقاموا عليه وهو يكذب هذا الكذب الظاهر.

وهناك من أعدائه قريش والعرب واليهود والنصاري وكيدهم عظيم، كيف لم يوافقوا علي هذا ويجمعوا الناس عليه؟ وكيف لم يقولوا لأصحابه وهم إخوانهم وأولادهم ومنهم: يا هؤلاء، فارقتم أديانكم، وجهلتم أسلافكم، وأكفرتم آباءكم وشهدتم عليهم بالفضيحة، طاعة لرجل فرض عليكم مجاهدة الأمم، وبذل دمائكم وأموالكم في ذلك، وألزمكم التكاليف الشديدة من شريعته، وهو يكذب هذا الكذب الظاهر البارز للعقول والأبصار؟ وفي تركهم لذلك دليل علي صحة هذه المعجزة.

وأعجب الأمور أنه يتلو عليهم قول الله جل وعز: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1] أي لا يجدوا بك كذابا، ولا يجدون

(١) سورة الأنعام آية ٣٣ .

في قولك كذباً وإن حرصوا علي ذلك واستفرغوا وسعهم،، ولو قدروا أن يجدوا له عثرة أو ذلة أو أدني شبهة لما واثبه قبل الناس كلهم إلا أصحابه، ولا قبله إلا خاصته وثقاته وبطانته.

فإن قيل: فلعلهم لم يفعلوا هذا به وإن وقفوا علي كذبه لئلا يفضحوا أنفسهم ويشتموا عدوهم، ولئلا يقول الناس لهم خُدعتم فامسكوا لهذا.

قيل له: هذا لا يسأل عنه مميز، لأنه كان قد كذب فأقاموا عليه وقد عرفوا كذبه، فقد تعجلوا الفضيحة بإقامتهم عليه وأشتموا بنفوسهم الأعداء، [وخسروا الدنيا والآخرة].

وجواب آخر:

وهو أن هؤلاء الذين اتبعوا الأعلام التي كانت معه من القرآن وغيره وقد شهدوا علي أنفسهم وآبائهم بأنهم كانوا في ضلال وباطل وفضائح وما استنكفوا من الرجوع عن ذلك، فلو حسوا بأدني شبهة فضلاً عن كذب لبادروا ورجعوا وكان ذلك أروح لهم، وأخف عليهم، وأبين في عذرهم وقيام حجتهم، فإن مراجعة الحق أولي من التمادي في الباطل.

وجواب آخر:

وهو أنهم لو وقفوا علي أمر يرتاب به لسألوه عنه، وعنف بعضهم بعضاً في الإقامة عليه وفي ترك قتله والبراءة منه، ولأذاعوه وأظهروه وإن ضرهم وغمهم وساءهم، فإن الجماعة الكبيرة لا يجوز أن تكتم ما قد عرفت وإن ساءهم وإن ضرهم وإن ذهب برئاستهم وحط من أقدارهم. فاعرف هذا فإنه أصل كبير. هذا فيما يقفون عليه خاصة، فكيف بأمر الشهب وهو شئ يعرفه الناس عامة من ولي وعدو، فتعلم أنها آية عظيمة وحجة ظاهرة.

وانظر كيف أوردها وأدل علي العدو والولي واستطال بها فقال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ

وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[1] فانظر كيف ذكر هولها وعظمتها وارتياع الجن والإنس لحدوثها وأنهم لا يدرون لأي شئ حدثت وهل حدوث ذلك لعذاب أهل الأرض بذنوبهم، أم لموعظتهم وإرشادهم.

وقد جاء مع هذا أيضاً أن الكواكب لما انتفضت أخذ الناس في الخروج من أموالهم، وقالوا ما حدث هذا إلا لفناء الدنيا وانقضاء مدتها، فقال عبد نائلة بن عمرو الثقفي لأهل ثقيف: أمهلوا فإن إفادة المال بعد إتلافه تشق وتصعب، فانظروا إلي الكوكب المنقضة، فإن كانت من الكواكب المعروفة المتقدمة فهو لفناء الدنيا، وإن كانت كواكب الآن حدثت والآن خلقت فهو لأمر. فحدثت إحدي الليالي، فنظروا فإذا هي كواكب الآن حدثت، فامسكوا عن أموالهم وترقبوا ما يأتيهم من الأخبار، فإذا قد أتاهم أن رجلاً من قريش بمكة قد زعم أن الله أرسله إلي خلقه لينذرهم، فقالوا: لعل هذا الانقضاض شاهد لهذ المنذر، وتبركوا برأي هذا الرجل المشير وصار مفخراً له ولولده من بعده، حتي يقولوا لثقيف أبونا الذي حبس عليكم أموالكم.

فإن قيل: أو ليس قد ذكر أن في شعر الشعراء الأولين ذكراً لانقضاض الكواكب، وفي كتب العجم ذكر لذلك.

قيل له: إن أبا علي وابنه أبا هاشم وأصحابهما قالوا: ما ننكر أن يكون قد كان قبل مبعث النبي شئ من انقضاض الكواكب، ولكنا قد علمنا بالدليل الذي قدمنا أنه قد حدث عند مبعث النبي شئ انتقضت به العادة، وامتلأت السماء به، فتلك الزيادة علي الأمر المعتاد هي الحجة؛ فصار ذلك بمنزلة

---

(١) سورة الجن الآيات ١-١٠ .

الطوفان، فإن الماء قد كان قبل نوح عليه السلام يزيد زيادات كثيرة معروفة معتادة، فلما جاء نوح عليه السلام زاد الماء زيادة انتقضت به العادة وخرج عن الأمر المعتاد، فكانت تلك الزيادة هي الآية وهي الحجة.

فليس في شعر الشعراء ولا فيما وجد في كتب القدماء مطعن في هذه الدلالة، ولا تكذيب لهذا الخبر، وهذا جواب سديدشاف كاف، لأن النبي ﷺ إنما احتج بامتلاء السماء بالشهب لا بالأمر المعتاد.

هذا لا يفعله عاقل ولا يقع منه كائناً من كان، فكيف بمن يدعي الصدق والنبوة ويريد من الناس كلهم تصديقه واتباعه، فلا يجوز أن يحتج عليهم بأمر قد عرفوه قبل أن يخلق ويخلق آباؤه فيقول: هذا من آياتي ومن أجلي حدث وبسبب تصديقي خلق، فيكون بمنزلة من قال: من الدلالة علي نبوتي أن الشمس ما كانت تطلع عليكم وإنها الآن قد صارت تطلع.

فأما أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله، فإنه يذكر في كتاب «الحيوان» انقضاض الكواكب، وذكر ما فيه من الآية والحجة علي النبوة، وذكر الشعر الذي ذكر في هذا المعني لهؤلاء الشعراء، فقال هو وإبراهيم النظّام وغيرهما: إنه ليس في هذا الشعر أمر بين قد أراد به صاحبه انقضاض الكواكب ولكنه أمر محتمل. وذكروا في بعض هذا الشعر أنه مولد وقد قيل في الإسلام، قاله بعض الزنادقة ونسبه إلي الأوائل، وذكروا في بعضه أن قائله وإن كان كافراً جاهلياً فقد أدرك المبعث وأوائل المبعث فأبطلوا أن يكون في هذا متعلق أو يحتاج فيه إلي جواب.

واستبعد أبو عثمان أن يكون هذا أمر قد كان ظاهراً قبل الإسلام. قال وإلا فأين كان القدماء من الشعراء، كامرئ القيس ومن تقدمه، وكنانة وزهير وشعراء القبائل القديمة، كيف لم يذكروا هذا في أشعارهم وهو أمر بارز لأبصارهم؟ وهم قد شبهوا بالحيات والعقارب والجعلان والخنافس والبراغيث وبالقمل وبكل شخص وبكل ما دب ودرج؟ وليس ببعيد ما قاله.

فأما جواب أبي علي وأصحابه: فما نبالي ولو كان الشعر ملء الدنيا للأوائل، فما له في هذا تأثير.

قال أبو عثمان: وأما ما يدعي من ذكر الشهب في كتب العجم الأوائل فهو أمر لا سبيل إلي العلم به لأنها منقولة في الإسلام، وإنما نقلها الواحد بعد الواحد من أعداء الإسلام، ومن هو أشد الناس حرصاً علي تكذيب النبي ﷺ وتشكيك المسلمين، فهو لو كان عدلاً مسلماً ما علم ذلك بخبره، فكيف وحاله ما وصفنا؟.

وبعد فمن أين لنا أنه عليم باللغتين ويقصد واضعي الكتب حتي يوثق بنقل وبأخباره؟ وهو كما قال أبو عثمان، فإن هذه الكتب التي وضعت في الإسلام، ونسب بعضها إلي الهند، وبعضها إلي الروم، وبعضها إلي اليونانية، وبعضها إلي القبط، وبعضها إلي النبط، وبعضها إلي الفرس، فإنما وضعها الواحد بعد الواحد، وزعم أنه وجده لأهل تلك اللغة، وزعم أنه عالم بتلك اللغة فنقله، فهو أمر لا يقع به علم وليس معنا أكثر من دعوي هذا الواضع، فبمقدار ما يكتبه ويترجمه ويلقيه إلي الوراقين فيدور في أيدي الناس فيقول من لا علم له ولا عادة له بمجالسة المعتزلة ومن أخذ عنهم ومن لا سبيل له إلي طرق أهل العلم: هذا من كتب الأوائل.

فاعرف هذا، فإنه باب كبير وكل أحد أمس الحاجة إليه فإن الجهل وترك التأمل غالب علي الناس، وأعداء الإسلام كثير، وهم بينهم، يكيدونهم بأنواع الكيد من حيث لا يشعرون.

فمن ذلك خطب ورسائل ووصايا وحكم وضعت في أيام بني العباس ونسبت إلي أمم العجم، لا سبيل إلي العلم بما ادعوا واضعوها من أنهم وجدوها للأوائل، وإنما كان غرضه شغل الناس عن القرآن وعن عهود رسول الله ﷺ ووصايا السلف بعده.

ولعله إنما أخذ ذلك وحصل معانية من القرآن ومن حديث رسول الله ﷺ، وغيّر اللفظ ونسبه إلي أمم العجم والعلماء، وأهل التحصيل يتهمون عبد

الله بن المقفع فيما وضعه من «كليلة ودمنة» وكتاب «اليتيمة»، وما زعم أنه وجده للفرس،، فقالوا: ما معنا في هذا أكثر من الدعوي، وهو رجل بليغ اللسان بليغ العلم، فارسي الأصل، قد جري من المجوسية علي عرق، فقد كان فيها طويلاً، وهو كثير الرواية لآداب العرب وعلومها، متعصب لقومه قد أسلم بعد الكبر وكان متهماً في دينه.

وهكذا قالوا في أبان بن عبد الحميد اللاحقي. وقد وضع سهل بن هارون بن رهبونة الكاتب الفارسي صاحب المأمون،، كتاب «ثغرة وثعلة»، يعارضه به كتاب «كليلة ودمنة»، وجعله علي ألسن الطير والبهائم، وذكر فيه حكم العرب كما صنع ابن المقفع في كليلة ودمنة عن هذا الذي سماه بروزي الطبيب، فقدمه في صدر الكتاب كأنه ما أراد إلا تشكيك أهل الديانات وأتباع الأنبياء صلي الله عليهم في أديانهم.

وقد دار في أيدي قوم من المنجمين كتاب زعموا أنهم وجدوه لجابان منجم كسري ملك فارس، وقد أخبر فيه بزعمهم أن نبوة تحدث في العرب يكون مدة صاحبها كذا وكذا سنة. فذكر أيام رسول الله ﷺ، ثم أيام أبي بكر الصديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم، ولم يذكر أسماءهم، وفصل من أحوالهم وسيرهم وأعمالهم شيئاً كثيراً. فأفتتن به المنجمون حتي ظنوا أن[1] صنعتهم حق، وأنها تؤدي إلى علم، وفتنوا بذلك خلقاً مما لا يدري من الأمراء والوزراء وطبقات الكتاب، وجعلوا ذلك شاهداً لصنعة النجوم ونفقوها، فجري ذلك بحضرة رجل من علماء المعتزلة فقال للمنجم الذي احتج بذلك في صحة صنعة النجوم وهو إسحق بن فليت اليهودي أحد رؤساء المنجمين في زمانه ببغداد، وكان يتقدم عند كثير منهم علي رؤساء منجمي زمانه ومن كان في عصره كإبن زكريا النوبختي، وكإبن فرخان شاه النصراني وغلام زحل:

من أين لك يا أبا الطيب أن هذا الكتاب وضعه جانان لكسري؟ فقال

(١) في الأصل: أنهم.

هذا مشهور دائر بين المنجمين لا يشكون فيه، فقال له: عن هذا وصحته سألتك، هل هو أكثر من إنك وجدت كتاباً مكتوباً منسوباً إلي جانان منجم كسري؟ من أين أن هذا كما كتبه هذا الكاتب وأخبر به هذا المخبر وما معنا وما معكم أكثر من الدعوي؟ وإنما هذا رجل وجد كتابه فى الإسلام وفي أيام بني العباس وفي زمان الديلم منها، وادعي فيه أنه قديم وجده فارسياً فنقله، وإنما وضعه بعد أن مضت أيام رسول الله ﷺ وأيام خلفائه وأيام بني أمية والصدر الكبير من بني العباس وعرف ذلك وتيقنه، فوضع الكتاب بعد ذلك، وحذف أسماء القوم ليظن أنه قد وضعه قبل أن يخلقهم الله، فيدعي من يقرأ كتابه ممن لا علم له له الصدق والحذق، ولصنعة النجوم الصحة، وإلا فأرنا إن كان قد أخبر فيه عمن يأتي من الخلفاء أو غيرهم، أو ذكر أيامهم وأعمارهم علي التحقيق كما ذكرها عمن تقدم، حتي يكون لك في ذلك شبهة.

فتحير ابن فليت من هذا بعد الخطاب الطويل، ولان بعد شدته، وسكن بعد نزوته، وقال: لعل الأمر أن يكون كما قلت، فقال له المعتزلي: ما أسرع ما رجعت عن تلك الدعاوي، فقال: أنا أخبرك، قد قرأت أربع نسخ من الكتاب المنسوب إلي هذا الرجل، وكلها مختلفة، وقد ذكر فيها أن البيت يسقط حجه وتعظيمه، وأنا أتوقع كل سنة وأسأل عن الحاج فإذا هو لا ينقطع حجه. ولم يكن بنا قول ابن فليت ولا استدلاله فإنه ليس بشئ قوي، ويمكن الخصم أن يدعي أن ذا سيكون، أو يشغب بغير هذا ولكن الذي ذكره واضع الكتاب ليس في صنعة النجوم شئ منه ومن الإصابة علي طريق التفصيل، وإنما تتفق لهم الإصابات عن غير علم كما تتفق للعّابين الخاتم والزوج والفرد، وللمتفائلين برؤية الثعلب، وللمتطربين بالغراب والبوم وما يتفق لهؤلاء من الإصابة أكثر وأحسن وأسرع لحذاق منجمي الملوك.

وهذا يكفيك في بطلان صنعة النجوم، وإن لم نكن في الرد عليهم، ولكن عرض هذا فذكرناه، وستجد في الرد عليهم أكثر من هذا.

ولكن ذكر الكتاب المنسوب إلي جانان وأمثاله، يضعه أعداء الأنبياء ليشككوا في إخبارهم، وليجعلوا صوابهم جارياً مجري إصابة المنجمين، ولينفقوا صنعة النجوم، وليرغبوا الناس في الفزع إليهم وفي التعويل عليهم ويستأكلوهم، ولتتم حيلتهم عليهم، وهذا الجنس يسميه المنجمون الهاذور، وأنت تجد هذا كثيراً، فيقولون: قال ما شاء الله ابن أبري اليهودي في القرانات كذا وكذا وقد صح، وقال الحسن بن سهل والفضل للمأمون: كذا وكذا قبل أن يكون فكان كذلك.

وربما وقع لبعض المؤرخين والإخباريين ممن لا علم له بصنعة الكلام مثل هذه الكتب والأخبار فيذكرها ويضمنها كتبه، فيقرؤها من لا علم له ولا سأل العلماء عنها فيتحير ويضل.

وقد صنع الناس في الإسلام مثل هذا، فقصدوا إلي أمور قد كانت ووقعت فعملوا فيها أشعاراً ونسبوها إلي قوم قد تقدموا وادعوا أنهم قد عرفوها قبل أن تكون، كما صنعوا في قصيدة نسبوها إلى رجل يقال له ابن أبي العقب ذكر فيها دولة بني العباس وكيف ابتداؤها، وذكر جماعة من خلفائهم وأين ماتوا وأين قبورهم، وادعوا أنه أخذ هذا عن الأئمة وعن الأوصياء.

وهو أمر لا أصل له وكذب لا يشك فيه، وإنما سبيله ما ذكرنا.

فاعرف ذلك فإنه باب كبير. والمخرق به والمشاكل به كثير، وللجهل به ضلت طوائف من هذه الأمة ممن خالف المعتزلة من طوائف الشيع وغيرهم.

وهذا سبيل الكتب المنسوبة إلي اليونانية كأفلاطن وأرسطاطالس و غيرهم، فإنها نقلت في الإسلام،وناقلوها ومدرسوها إنما هم الواحد بعد الواحد الذين لا يعلم بأخبار جماعتهم شئ، وهم مع هذا أعداء رسول الله ﷺ وأشد الناس حرصاً علي التشكيك في الإسلام وصدّ أهله عنه، وهم يتسترون بالنصرانية والنصاري لا يرضونهم، ويشهدون عليهم بالإلحاد وتعطيل الشرائع

والطعن في الربوبية وفي جميع النبوات، وقد حرعوهم ونهوا عنهم، كقسطا بن لوقا وحنين بن اسحق وابنه اسحق، وقويري، وستي بن يونس ويحي بن عدي وهؤلاء مع قلتهم ما جمعهم زمان واحد.

وكان يوحنا القس مدرس أقليدس والمجسطي وغيره يقول: قد حذف الذين نقلوا كتب هؤلاء كثيراً من ضلالهم وفاحش غلطهم عصبية لهم وإبقاء عليهم. وأعاروهم وأعطوهم ما ليس لهم من معاني الإسلاميين وبيانهم، والعدو إذا كان متديناً لم يؤمن حنقه، فكيف بمن لا يعتقد معاداً، ولا يرجو حساباً، ولا يخاف عقاباً.

ثم عدت إلي ما كتب عليه من ذكر الشهب.

وقد تصفح العلماء الكتاب المعروف بـ علوي المنسوب[1] إلـــي ارسطالس[2] فإنه نقله بعض هؤلاء لبعض الخلفاء من بني العباس ليتحفه به، فما وجدوا فيه ذكراً مصرحاً لانقضاض الكواكب. وإنما هو قول محتمل يتأوله بعضهم ويدعي أنه أراد به ذلك، وهو بأنه شئ يثور من الأرض ويرقي إلي الجو أشبه[3].

وقد كان هرون الرشيد ضغط الروم وحاصرهم في بلادهم وأذلهم إلي أن أجابوا إلي أداء الجزية واتقوه بها فأخذها منهم، وكتب إليهم كتاباً يبين لهم توحيد الله وانفراده بالقدم وصدق نبيه ﷺ، وذكر فيه قطعة كافية حسنة من أعلام النبوة وأنفذه إلي ملك الروم مع رجل من المعتزلة إما معمّر أو غيره، والكتاب إنشاء أبي الربيع محمد بن الليث الكاتب القرشي، وهو موجود في رسائل تاج الأصفهاني لا أشك، وقد حدثني بعض أهلل العلم أنه مذكور في المنشور والمنظوم لابن أبي طاهر. وقد ذكر في هذا الكتاب آية الشهب وانقضاض الكواكب واستوفي الحجة فيها، ولم ينفذ هذا الكتاب إلي ملك

---

(١) يقصد كتاب الآثار العلوية

(٢) يقصد أرسطو

(٣) هكذا في الأصل ويبدو أن هناك سقط من الناسخ.

الروم إلا بعد تصفح كتب الأعاجم واستقصاء كل ما يمكن أن يقال، لتعلم صحة هذه الآية وخرص العلماء فيها قديماً[١].

وقد قال أبو علي رحمه الله وأصحابه كما قد ذكرنا عنهم ما لا يضرنا ولو ذكر الأوائل كلهم الحجة في الزيادة الناقضة للعادة وامتلاء السماء به عند مبعثه. وقد جاء في الأثر أن كوكباً انقض فقال النبي ﷺ: ما كنتم تقولون في هذا في الجاهلية؟

فقال أصحاب أبي علي لأصحاب أبي عثمان: هذا يدل علي أنه قد كان لانقضاض الكواكب أثر ثم زاد في المبعث زيادة انتقضت العادة به، فقال أصحاب أبي عثمان: إنما أراد النبي ﷺ بقوله لهم: ما كنتم تقولون في ذلك في الجاهلية، يريد قبل إسلامهم وقبل تصديقهم له. وعلي كلا القولين فالآية ثابتة والحجة قائمة، وليس في هذا خلاف في كونها ووقوعها.

وأما أرسطالس هذا فلا معول علي ما يقوله. وإن كان أصحابه قد صدقوا عليه فهو غير كامل العقل، لأنهم حكوا عنه أن هذه الأجسام العلوية من الشمس والقمر والكواكب لا يجوز أن تنقسم ولا تتجزأ ولا تتبعض، وأن الشمس ليست حارة ومحال أن تكون حارة، وأن هذه الأجسام محال أن تكون حارة أو باردة، أو رطبة أو يابسة، أو ثقيلة أو خفيفة، أو لينة أو خشنة، ومحال أن تكون هذه الكواكب بأكثر مما هي بكوكب واحد، أو ينقص منها كوكب واحد، ومحال أن تكون الشمس أكثر مما هي أو أقل، ومحال أن يكون لها لون أو ريح أو طعم.

وهذا الذي أحاله هذا الرجل جوازه قائم في العقل، يعلمه كل عاقل من عالم وجاهل، ونظار وغير نظار، فإن كان عاقلاً وبلغ به المحل واللجاج إلي أن ركب هذه المجاحدة والمكابرة فيما هو في فطر العقول كلها وفي أوائلها، فمن

---

(١) راجع رسالة أبى الربيع محمد بن الليث من هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم تحقيق خالد محمد عبده وطبع مكتبة النافذة - القاهرة ٢٠٠٦.

يعده أو يعتد بقوله أو يذكره فيمن يرد عليه ويتتبع عوراته وهو عورة كله من أوله إلي آخره؟.

ولو لم يكن له من الجهل والخروج عن العقل إلا هذا لكفاه وأغناه، بل لو قسمت هذه الجهالة علي جميع أهل الأرض من أولهم إلي آخرهم لحملت منازلهم، واسقطت أقدارهم، حتي لا يعدوا فيمن ينقض عليه ويرد قوله. كيف وله من الجهالات المستخفة المسقطة غير هذا مما إن طلبته وجدته ووقفت عليه.

ومن جهله أن اعتقد أن السماء والشمس والقمر والكواكب، عاقلة مميزة سميعة بصيرة ضارة نافعة تحيي وتميت، وأن كل حادثة في هذا العالم من فعلها وتأثيرها. والعلم بأن السماء والشمس والقمر والنجوم جمادات وموات كالعلم بأن شعاع الشمس وشعاع القمر وضوء الكواكب والبرق والغيم والريح والمطر والبحر والماء والهواء والأرض والنار جماد موات.

ولا فرق بين من ادعي في الأرض والنار و لماء والهواء والنبات ذلك أو ادعاه في الكواكب، بل كانت دعواه في الطعام و لشراب والهواء وأشباه ذلك أنها حية قادرة نافعة ضارة تحيي وتميت أجدر وأدخل في الشغب ممن ادعي ذلك في الشمس والقمر والسماء والكواكب، فيقول: وجدت الهواء حيث كان جاز أن يكون معه الحيوان، وحيث لا يكون لا يكاد يوجد حيوان، وإذا ركد مرض الأصحاء ونهك المرضي وتعفن عنده الثمار والطعام والنبات، فعلمت أنه حي سميع بصير قادر يحيي ويميت.

ثم يصير إلي الماء فيقول: عند وجوده يوجد الحيوان والنبات وعند عدمه يتلف الحيوان والنبات، فعلمت أنه حي ناطق سميع بصير نافع ضار.

ثم يصير إلي الأرض ومرافقها فيذكر منه مثل ذلك، لما فيها من النبات والمعادن.

وكذلك في النار قال: ألا تري أنها تعقد شيئاً كالبيض وما أشبهه، وتحل

شيئاً كالنحاس والرصاص والذهب والفضة وما أشبه ذلك، وتبيض شيئاً وتسود شيئاً، فعلمت أن هذه الأشياء كلها حية ناطقة سميعة بصيرة فعالة.

وهذا قول ماني، حتي قال في أجسام العالم كلها وفي كل جزء منها، حتي قال ذلك في الحديد والحجارة والحطب. والمنانية تقول في الأصوات التي تسمع عند قلي السمسم والباذنجان وأصوات غليان القدور وأصوات الحطب عند التشقيق، هذا كله صراخ وضجيج منها، لما تجده من الآلام.

والمنانية تزعم أن الفلاسفة عنها أخذت هذه المذاهب، وإنما ذكرت لك بهذا المكان لتعرف مقدار عقول الزنادقة والملحدة، ولولا فتنة قوم من الرؤساء والكتاب والوزراء بهم لما ذكرناهم، ولكن هؤلاء لغفلتهم وسوء تمييزهم قد اغتروا بهم لذا[١] ذكرناهُم. وصارت هذه الباطنية تدعو إليهم، وتضع الروايات الكاذبة عن أهل البيت فيهم، فوجب أن نذكرهم بما فيهم ويصدق عليهم. ليعرفهم الناس.

وباب آخر

[دعاؤه صلى الله عليه وسلم على مضر]

ومن آياته ﷺ، أنهم لما كذبوه وآذوه في نفسه وأصحابه دعا عليهم فقال: اللهم أشدد وطأتك علي مضر، وابعث عليهم سني كسني بني يوسف ﷺ فأمسك عنهم القطر حتي جف النبات والشجر وماتت الماشية، وحتي اشتووا القد[٢] وأكلوا العلهر[٣]، وتفرقوا في البلاد لشدة الحال. فوفد حاجب بن زرارة إلي كسري فشكا إليه ما نالهم وسأله أن يأذن له في الرعي بالسواد ورهنه قوسه، وهي قصة معروفة نزل بها القرآن وجري فيها الخوض، وهو قوله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا

(١) في الأصل (لما)

(٢) القد: أى الجلود المنتنة والجيف وسياتى بيان ذلك فيما يلى من المتن.

(٣) العلهر: هو الدم يخلط بالوبر (هكذا ذكر في الحاشية).

عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]، والدخان الجدب، ثم سمي دخاناً لأن الغبار يرتفع في عام الجدب فيكون كأنه دخان، ولذلك سميت سنة الجدب غبراء لارتفاع الغبار فيها،.

وهذا شئ قد كان ومضي، ولا يجوز أن يكون هذا مما لم يأت، لأنه عز وجل يقول: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] ثم ورد علي نسق ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ. يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتقِمُونَ﴾[٣] يعني يوم بدر.

وهذا كله يدل علي أن الدخان قد انقضي ومضي، وأنه بدعائه، لأن العذاب في الآخرة لا يجوز أن ينكشف ولا يخف وقد قال في هذا: ﴿إِنَّـا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ والعود إلي المعاصي في الآخرة لا يقع أيضاً، وكان انكشاف العذاب عنهم بدعائه أيضاً، فأتاهم الغيث وكثر، ثم عادوا إلي طغيانهم.

قال أصحاب عبد الله بن مسعود: كنا عند عبد الله جلوساً وهو مضطجع بيننا، فأتي رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند أبواب كندة -يعني الكوفة- يقص، يزعم أن آية الدخان تجئ فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام. فقال عبد الله -وجلس وهو غضبان -أيها الناس اتقوا الله، ومن علم شيئاً فليقل بما يعلم، ومن لا يعلم فليقل الله أعلم، فإن الله قال لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[٤].

إن النبي ﷺ لما رأي الناس إدبارا قال: اللهم سبعاً كسني يوسف صلي الله عليه، فأخذتهم سنة حصدت كل شئ حتي أكلوا الجلود المنتنة والجيف، وينظر أحدهم إلي السماء فيري دخاناً من الجوع؛ فأتاه أبو سفيان بن حرب، فقال: يا محمد إنك حيث تأمر بالطاعة وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، قال ابن مسعود: فكانت الدخان سنين كسني يوسف عليه السلام

---

(١) سورة الدخان الآيات ١٠-١١ .

(٢) سورة الدخان آية ١١ .

(٣) سورة الدخان الآيات ١٥-١٦ .

(٤) سورة ص آية ٨٦.

فكشف عنهم، أما ترونه قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[١] بعد أن قال له فارتقب، فارتقب ﷺ ووقع، ثم دعا فكشف. والبطشة الكبري يوم بدر. وقد مضت آية الروم وآية الدخان والبطشة واللزام.

بـاب

ومن آياته بمكة، أنه ﷺ لما جمعهم ووعظهم ودعاهم إلي اتباعه ومفارقة ما هم عليه من ديانات آبائهم ردوا قوله، ومشي بعضهم إلي بعض وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا . امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾[٢] وتوعدوه بكثرتهم وعزهم وأموالهم، ووثقوا بذلك، وغرهم ما رأوا من ضعف رسول الله ﷺ ووحدته وتوعدهم رسول الله وهو في تلك الحال، فأنزل الله ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾[٣] فكان كما أخبر وكانت العقبي له.

فتأمل الأمر في ذلك تجده عظيماً لأنه توعدهم بالحرب قبل الحرب وقبل الجماعة وفي حال الضعف، وهو معهم وفي أسرهم وفي قبضتهم، فبعثهم علي قتله واستئصاله، وهيجهم علي بذل المجهود واستفراغ الوسع في مكارهه.

وهذا لا يقع من عاقل إلا أن يكون واثقاً بالله، ساكناً إلي تنزيله ووحيه. وإذا وفيت النظر حقه لم تجد لرسول الله ﷺ في إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين نظيراً في الضعف والوحدة، ومن خالف قومه تلك المخالفة وهاجمهم وأسخطهم ذلك الإسخاط، وأخبرهم بما سيكون من قوته وغلبة الجبابرة من الأمم قبل أن يكون ذلك أو يكون له إمارة تقتضي، فصارت الأمور في القوة والظهور إلي ما قال، فابتدأ ابتداء الشمس وامتد امتداد النهار.

---

(١) سورة الدخان آية ١١.

(٢) سورة ص الآيات ٥-٦.

(٣) سورة ص آية ١١.